تفسير سورة الحج

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ
تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ
حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ
٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣
كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ
عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن
يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ
وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن
كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾

[الحج: ١-٧].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ –زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ –سُكَٰرَىٰ –يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ –مَّرِيدٖ –كُتِبَ عَلَيۡهِ –تَوَلَّاهُ –يُضِلُّهُۥ –وَيَهۡدِيهِ –ٱلۡبَعۡثِ –رَيۡبٖ –نُّطۡفَةٖ –عَلَقَةٖ –لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ –مُّضۡغَةٖ –مُّخَلَّقَةٖ –وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ –وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ –أَجَلٖ مُّسَمّٗى –أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ –هَامِدَةٗ –ٱهۡتَزَّتۡ –وَرَبَتۡ –زَوۡجِۭ –بَهِيجٖ –لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾	اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية
﴿زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾	الزلزلة التي تكون عند قيام الساعة
﴿سُكَٰرَىٰ﴾	(كأنهم) ذهبت عقولهم بسبب شرب الخمر
﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾	يشكك في قدرة الله على البعث. ويشكك في توحيد الله
﴿مَّرِيدٖ﴾	متمرد – رافض للأمر أشد الرفض
﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾	قُدِّر على الشيطان
﴿تَوَلَّاهُ﴾	من جعل الشيطان وليًّا له وارتضاه
﴿يُضِلُّهُۥ﴾	يصرفه عن طريق الحق
﴿وَيَهۡدِيهِ﴾	يدله ويقوده
﴿رَيۡبٖ﴾	شك
﴿ٱلۡبَعۡثِ﴾	الإحياء بعد الموت
﴿نُّطۡفَةٖ﴾	المراد: قطرة المني

﴿عَلَقَةٍ﴾	المراد: الدم الذي تعلق بجدار الرحم
﴿مُّضۡغَةٍ﴾	قطعة اللحم
﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾	مصورة (صور سمعها وبصرها) – مكتملة
﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٍ﴾	غير مصورة – غير مكتملة
﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾	لنوضح لكم قدرتنا على البعث
﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾	نثبت في الأرحام ونجعله مستقرًّا فيها
﴿أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾	وقد حدَّده الله
﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾	أردأ العمر – أخسه – أدونه
﴿هَامِدَةٗ﴾	يابسةً لا تنبت – ميتة
﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾	تحركت بالنبات
﴿وَرَبَتۡ﴾	انتفخت بالماء
﴿زَوۡجِۢ﴾	صنف
﴿بَهِيجٖ﴾	حسن المنظر
﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾	لا شك في قيامها وإتيانها

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بهذه الزلزلة (متى تكون)؟

ج: ذهب عدد من العلماء، وهو الذي تشهد له الأدلة .. إلى أن هذه الزلزلة تكون يوم القيامة إذا خرج الناس من قبورهم، وهي إحدى الأهوال يوم القيامة.

واستشهدوا لذلك بما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

يَقُولُ اللهُ عز وجل: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ! وَسَعْدَيْكَ! وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ! قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ؟ قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ» قَالَ: فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ».

بينما ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه الزلزلة كائنة في الدنيا قبل يوم القيامة.

ووردت بذلك بعض الآثار منها:

أثر علقمة (بسند صحيح عنه) قال: (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) قال: قبل الساعة.

أخرجه الطبري رحمه الله، وأورد آثارًا أُخر وحديثًا فيه مقال في هذا الصدد.

ومن حجج أصحاب هذا القول أنه ليس ثَمَّ يوم القيامة حوامل ولا مُرضعات.

ولمزيد انظر السؤال الآتي وجوابه.

ورجَّح الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان) أن هذه الزلزلة تكون يوم القيامة بعد البعث من القبور مستدلًّا بحديث: يا آدم إن الله يأمرك أن تخرج بعث النار من ذريتك... الحديث، وقد تقدم، وقال بعد أن أورده:

---

(١) البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (حديث ٢٢٢).

فحديث أبي سعيد هذا الذي اتفق عليه الشيخان كما رأيت، فيه التصريح من النَّبي ﷺ بأن الوقت الذي تضع فيه كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، بعد القيام من القبور كما ترى، وذلك نص صحيح صريح في محل النزاع.

فإن قيل: هذا النص فيه إشكال، لأنه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث، حتى تضع حملها من الفزع، ولا ترضع، حتى تذهل عما أرضعت.

فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: هو ما ذكره بعض أهل العلم، من أن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً، فتضع حملها من شدة الهول والفزع، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك، ولكن هذا يحتاج إلى دليل.

الوجه الثاني: أن ذلك كناية عن شدة الهول كقوله تعالى: {يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً} ومثل ذلك من أساليب اللغة العربية المعروفة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

تنبيه

اعلم أن هذا الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة التي ذكرنا بعضها يرد عليه سؤال، وهو أن يقال: إذا كانت الزلزلة المذكورة بعد القيام من القبور، فما معناها؟

والجواب: أن معناها: شدة الخوف، والهول، والفزع، لأن ذلك يسمى زلزالاً، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] أي

وهو زلزال فزع وخوف، لا زلزال حركة الأرض، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ يدل على أن عظم الهول يوم القيامة موجب واضح للاستعداد لذلك الهول. بالعمل الصالح، في دار الدنيا، قبل تعذر الإمكان لما قدمنا مراراً من أن إن المشددة المكسورة تدل على التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، ومسلك النص الظاهر: أي اتقوا الله، لأن أمامكم أهوالاً عظيمة، لا نجاة منها إلا بتقواه جل وعلا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – يا أيها الناس احذروا غضب ربكم ﷻ وعذابه فإن غضبه شديد وعذابه أليم، فاجعلوا بينكم وبين ذلك وقاية بطاعتكم له، وامتثالكم أمره، واجتنابكم ما نهاكم عنه، فإن الزلزلة التي تكون يوم القيامة شأنها عظيم، وهي إحدى الأهوال في ذلك اليوم، فيومها، يوم تأتيكم وترونها تذهل كل مرضعة عن وليدها الذي ترضعه، تغفل عنه وتنساه وتنشغل عنه بما هي فيه من عظيم الهول وشدة البلاء، والحوامل يضعن حملهن إذا كانت هناك حوامل، وترى الناس وكأنهم سكارى كأنهم – من شدة الهول – قد شربوا خمرًا فذهبت بعقولهم، وما شربوا خمرًا آنذاك وليست عقولهم بغائبة، ولكن عذاب الله آنذاك شديد تخدره جميع النفوس، ويحذره جميع العباد، وكل له شأن يُغنيه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس احذروا عقاب ربكم بطاعته فأطيعوه ولا تعصوه، فإن عقابه لمن عاقبه يوم القيامة شديد.

ثم وصف جلّ ثناؤه هول أشراط ذلك اليوم وبدوه، فقال: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

واختلف أهل العلم في وقت كون الزلزلة التي وصفها جلّ ثناؤه بالشدة، فقال بعضهم: هي كائنة في الدنيا قبل يوم القيامة.

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ، وأورد عددًا من الأخبار عن رسول الله ﷺ، منها حديث عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذين قدمت ذكرهما.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ يقول جلّ ثناؤه: يوم ترون أيها الناس زلزلة الساعة تذهل من عظمها كل مرضعة مولود عما أرضعت، ويعني بقوله: (تَذْهَلُ) تنسى وتترك من شدّة كربها، يقال: ذَهَلْت عن كذا أذْهَلُ عنه ذُهُولا وذَهِلْت أيضا، وهي قليلة، والفصيح: الفتح في الهاء، فأما في المستقبل فالهاء مفتوحة في اللغتين، لم يسمع غير ذلك.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام إذن: يوم ترون أيها الناس زلزلة الساعة، تنسى وتترك كل والدة مولود ترضع ولدها عما أرضعت.

وأوردعن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿﴾ قال: تترك ولدها للكرب الذي نزل

بها.

وأورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قراءتين لقول: ﴿﴾ وهما وتَرى، وتُرى وكذا وجهين في قوله (سكارى) وهما (سُكَارى) وسَكْرَى.

قال الطبري:

والصواب من القول في ذلك عندنا، أنهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب، ومعنى الكلام: وترى الناس يا محمد من عظيم ما نزل بهم من الكرب وشدّته سُكارى من الفزع وما هم بسكارى من شرب الخمر.

وأورد عن ابن زيد في قوله: ﴿﴾ قال: ما شربوا خمرًا ﴿﴾.

قال الطبري:

يقول تعالى ذكره : ولكنهم صاروا سكارى من خوف عذاب الله عند معاينتهم ما عاينوا من كرب ذلك وعظيم هوله، مع علمهم بشدة عذاب الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عَرصَات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: { إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا } [الزلزلة: ١ ، ٢] ، وقال تعالى: { وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً * وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ } [الحاقة: ١٤ ، ١٥] ، وقال تعالى: { إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا } [الواقعة: ٤ -٦].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة.

وقال بعض أن أورد جملة أخبار:

والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيامة من القبور. واختار ذلك ابن جرير.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: { إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } أي: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

والزلزال: هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا } [الأحزاب: ١١].

ثم قال تعالى: { يَوْمَ تَرَوْنَهَا } : هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسرًا له: { تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ } أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: { كُلُّ مُرْضِعَةٍ } ، ولم يقل: "مرضع" وقال: { عَمَّا أَرْضَعَتْ } أي: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: { وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا } أي: قبل تمامه لشدة الهول، { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى } وقرئ: "سَكْرَى" أي: من شدة الأمر الذي صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سُكارى، { وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ } .

❁ ❁ ❁

س: وصح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ومن الناس من يجادل في قدرة الله ﷻ، وفيما أخبر به من إحياء الأنفس بعد موتها فيقول إن الله ﷻ لن يحيي الموتى ولا يقدر على ذلك، وقد قال تعالى: ﴿﴾ وهذا الذي يجادل في الله بغير حجة ولا بينة ولا علمٍ صحيح ويتبع كل شيطان متمرد، كُتب على هذا الشيطان وقدر أن من اتبع هذا الشيطان وقلَّده فإن الشيطان يضله ويقوده إلى عذاب السعير والعياذ بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويعني بقوله: (مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) من يخاصم في الله، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بلي وصار ترابا، بغير علم يعلمه، بل بجهل منه بما يقول.(وَيَتَّبِعُ) في قيله ذلك وجداله في الله بغير علم(كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ) .

وقال في قوله تعالى : { كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ }

يقول تعالى ذكره: قضي على الشيطان، فمعنى(كُتِبَ) ههنا قُضِي، والهاء التي في قوله عليه من ذكر الشيطان.

وقوله(فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ) يقول: فإن الشيطان يضله، يعني: يضل من تولاه. والهاء التي في "يضله عائدة على "من" التي في قوله(مَنْ تَوَلاهُ) وتأويل الكلام: قُضى على الشيطان أنه يضلّ أتباعه ولا يهديهم إلى الحق.

وقوله(وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) يقول: ويَسُوقُ مَنِ اتَّبَعَهُ إلى عذاب

جهنم الموقدة، وسياقه إياه إليه بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمن، فذلك هدايته من تبعه إلى عذاب جهنم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رءوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، أي: علم صحيح، ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ . مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني: كتب عليه كتابة قدرية ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ ﴾ أي: اتبعه وقلده، ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي: يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

ﭐلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم –: استدلال على البعث الذي أنكره المشركون ونفوه، فاستُدل عليهم للبعث بأمرين، وإن شئت قلت بثلاث أمور وهي خلقهم أول مرة (أي خلق أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فالذي خلق الخلق أول مرة قادرٌ على إخراجهم من قبورهم أحياءً، كما قال تعالى: ﴿ ﴾.

واستدلوا أيضًا بما ورد من طريق الحسن عن عمران[1] بن حصين قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَتَفَاوَتَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فِي السَّيْرِ فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَوْتَهُ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ حَثُّوا الْمَطِيَّ وَعَرَفُوا أَنَّهُ عِنْدَ قَوْلٍ يَقُولُهُ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادِي اللهُ فِيهِ آدَمَ فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ فَيَقُولُ: يَا آدَمُ! ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ» فَيَئِسَ الْقَوْمُ حَتَّى مَا أَبْدَوْا بِضَاحِكَةٍ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الَّذِي بِأَصْحَابِهِ قَالَ: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَمَنْ مَاتَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ» قَالَ: فَسُرِّيَ عَنْ الْقَوْمِ بَعْضُ الَّذِي يَجِدُونَ. فَقَالَ: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ

---

(١) وهناك خلاف في سماع الحسن من عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ»[(١)].

واستدلال أيضًا بتقلبهم في الخلق من نطفة ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ مُخلقةٍ وغير مخلقةٍ، فهو سبحانه قادرٌ على أن يجعلها مخلقةً وقادر أن يسقطها قبل أن يخلقها، ويثبت في الأرحام ما يشاء إلى وقت محددٍ سماه الله ﷻ كما قال فجعلناه في قرار مكين إلى قدرٍ معلوم.

فاستقرار الجنين في بطن أمه بإذن الله ووقت استقراره هو الذي قدره الله.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: من المضغ مضغٌ خلقت فصورت شق الله سمعها وبصرها، وسائر أعضائها، ومنها مضغٌ لم تصور بل أُلقيت سقطًا ليبين الله ﷻ لخلقه قدرته على البعث، ويثبت في الأرحام أجنة إلى أن تكتمل أو إلى أجل يحدده هو سبحانه وتعالى ثم يخرج من أراد الله له الخروج من بطن أمه طفلًا ضعيفًا ، وقيل في معنى (طفلًا) أطفالًا ثم يقوى الطفل شيئًا بعد شيء حتى يبلغ أشده ويتمادى به تقدمه في العمر – إذ شاء الله ذلك – حتى تضعف قواه شيئًا بعد شيء كما قال تعالى: ﴿﴾ []، وهنا قال: ﴿﴾ أي: منتهى قوتكم، ومن من يستوفي أجله فيموت قبل بلوغ أشده، ومنكم من يعمر حتى يرجع إلى العمر الذي يكون فيه أضعف ما يكون وأخس ما يكون وأردأ ما يكون فيفقد الذاكرة بعد اكتمالها ونموها فينسى بعد تذكرٍ، ويذهب عقله بعد اكتماله، وهذه حال الحياة الدنيا يرجع فيها الإنسان إذا قدَّر الله له أن يُعمِّر إلى حالٍ من الضعف شديدة فقدان ذاكرةٍ، وفقدان التحكم في نفسه فتراه يبول كما يبول الرضيع، ولا يكاد يضبط أمر نفسه ولا يستطيع وكذا يسيل لعابُه ويغيب عقله،

(١) أحمد (٤/ ٤٣٥)، والترمذي (٣١٦٨).

ويأكل وهو صائم، ويتكلم وهو يصلي، ويجزم أنه صنع الشيء وما صنع، ويجزم أنه ما صنع الشيء وقد صنع فيُعذر بترك الصيام، ويُعذر (مع ذهاب العقل بترك الصلاة)، ويعذر وهو يصلي بلا وضوء بل بتيمم إن استطاع.

فهذا التقلب في الخلق والتطور فيه كما قال تعالى: ﴿﴾ طورًا بد تطور وحالًا بعد حال.

وكما قال تعالى: ﴿﴾ أي: لتمرن بكم الأحوال حالًا بعد حال دال على قدرة الله ﷻ على البعث، وهو الدليل الثاني عليه في هذا المقام.

أما الدليل الثالث عليه في هذه المقام فهو الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها، إذ الله قال: ﴿﴾ ميتة لا نبات فيها ولا ثمر فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت بالنباتات فتشققت وخرج منها النبات ﴿﴾ ارتفعت لسقياها بالماء وخروج النبات وأنتت من كل صنفٍ جميل حسن المنظر، ذلك الذي حدث، والذي كان بتقدير الله فالله هو الإله الحق الذي يفعل ما يشاء ويقضي بما يريد، وأنه وكم أحياء هذه الأرض بالنبات قادرٌ على إحياء الموتى بإذنه، إنه على كل شيء قدير.

وذلك أيضًا المذكور أمر الخلق ذكرنا به لتعلموا أن الساعة آتية، أي: أن القيامة لا بد فيها وأن الله يبعث من في القبور أحياء بعد أن أماتهم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم، اتباعا منه للشيطان المريد، وتنبيه له على موضع خطأ قيله، وإنكاره ما

أنكر من قدرة ربه. قال: يا أيها الناس إن كنتم في شكّ من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلاكم استعظاما منكم لذلك، فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم صلى الله عليه وسلم من تراب ثم إنشائناكم من نطفة آدم ، ثم تصريفناكم أحوالا حالا بعد حال، من نطفة إلى علقة، ثم من علقة إلى مضغة، لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به، فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذّر عليه إعادتكم بعد فنائكم كما كنتم أحياء قبل الفناء.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله مخلقة وغير مخلّقة، فقال بعضهم: هي من صفة النطفة. قال: ومعنى ذلك: فإنا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة مخلَّقة وغير مخلقة قالوا: فأما المخلقة فما كان خلقا سَوِيّا وأما غير مخلقة، فما دفعته الأرحام ، من النطف ، وألقته قبل أن يكون خلقا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن عبد الله (ابن مسعود) قال: إذا وقعت النطفة في الرحم، بعث الله ملَكا فقال: يا ربّ مخلقة ، أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلَّقة، مجّتها الأرحام دما، وإن قال: مخلقة، قال: يا ربّ فما صفة هذه النطفة ، أذكر أم أنثى؟ ما رزقها ما أجلها؟ أشقيّ أو سعيد؟ قال: فيقال له: انطلق إلى أمّ الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة! قال: فينطلق الملك فينسخها فلا تزال معه حتى يأتي على آخر صفتها.

وقال آخرون: معنى ذلك: تامة وغير تامة.

وأورد بإسنادٍ يصحح عن قتادة مثله.

وقال آخرون: معنى ذلك المضغة مصوّرة إنسانًا وغير مصوّرة، فإذا صورت فهي مخلقة وإذا لم تصوّر فهي غير مخلقة.

وأورد بإسناد صحيح عن عامر (الشعبي): أنه قال في النطفة والمضغة إذا

نكست في الخلق الرابع، كانت نسمة مخلقة، وإذا قذفتها قبل ذلك فهي غير مخلقة.

وبإسناد صحيح عن أبي العالية قال: ﴿﴾ السقط.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: المخلقة المصورة خلقا تاما، وغير مخلقة: السّقط قبل تمام خلقه، لأن المخلقة وغير المخلقة من نعت المضغة والنطفة بعد مصيرها مضغة، لم يبق لها حتى تصير خلقا سويا إلا التصوير، وذلك هو المراد بقوله: (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) خلقا سويا، وغير مخلقة بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوّر ولا ينفخ فيها الروح.

وقوله: (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) يقول تعالى ذكره: جعلنا المضغة منها المخلقة التامة ومنها السقط غير التام، لنبين لكم قدرتنا على ما نشاء ونعرفكم ابتداءنا خلقكم.

وقوله: (وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) يقول تعالى ذكره: من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية، فإنا نقرّه في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها، فلا تسقطه ، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذنا له بالخروج منها، فيخرج.

وقوله: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا) يقول تعالى ذكره: ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم إذا بلغتم الأجل الذي قدرته لخروجكم منها طفلا صغارا ووحد الطفل ، وهو صفة للجميع، لأنه مصدر مثل عدل وزور.

وقوله: (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) يقول: ثم لتبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم بعمركم.

وقال في تأويل قوله تعالى : { وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }،

يقول تعالى ذكره: ومنكم أيها الناس من يتوفى قبل أن يبلغ أشدّه فيموت، ومنكم من يُنْسَأ في أجله فيعمر حتى يهرم ، فيردّ من بعد انتهاء شبابه وبلوغه غاية أشده ، إلى أرذل عمره، وذلك الهرم، حتى يعود كهيئته في حال صباه لا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئا.

ومعنى الكلام: ومنكم من يرد إلى أرذل العمر بعد بلوغه أشده(لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ) كان يعلمه(شَيْئًا) .

وقوله: (وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً) يقول تعالى ذكره: وترى الأرض يا محمد يابسة دارسة الآثار من النبات والزرع، وأصل الهمود: الدروس والدثور، ويقال منه: همدت الأرض تهمد هُمودا ؛ ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:

قالَتْ قُتَيْلَةُ ما لِجِسمَك شاحِبا وأرَى ثِيابَكَ بالِياتٍ هُمَّدَا

والهُمَّد: جمع هامد، كما الركع جمع راكع.

وقوله: (فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ) يقول تعالى ذكره: فإذا نحن أنزلنا على هذه الأرض الهامدة التي لا نبات فيها ، المطر من السماء اهتزّت يقول: تحركت بالنبات،(وَرَبَتْ) يقول: وأضعفت النبات بمجيء الغيث.

وقوله: (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) يقول جلّ ثناؤه: وأنبتت هذه الأرض الهامدة بذلك الغيث من كل نوع بهيج، يعني بالبهيج ، البهج، وهو الحسن.

وقال في تأويل قوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي

الْقُبُورِ (٧) }

يعني تعالى ذكره بقوله: ذلك هذا الذي ذكرت لكم أيها الناس من بدئنا خلقكم في بطون أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده، طفلا وكهلا وشيخا هرما وتنبيهناكم على فعلنا بالأرض الهامدة بما ننزل عليها من الغيث، لتؤمنوا وتصدّقوا بأن ذلك الذي فعل ذلك الله الذي هو الحقّ لا شك فيه، وأن من سواه مما تعبدون من الأوثان والأصنام باطل لأنها لا تقدر على فعل شيء من ذلك، وتعلموا أن القدرة التي جعل بها هذه الأشياء العجيبة لا يتعذّر عليها أن يحيي بها الموتى بعد فنائها ودروسها في التراب، وأن فاعل ذلك على كلّ ما أراد وشاء من شيء قادر لا يمتنع عليه شيء أراده، ولتوقنوا بذلك أن الساعة التي وعدتكم أن أبعث فيها الموتى من قبورهم جاثية لا محالة (لا رَيْبَ فِيهَا) يقول: لا شك في مجيئها وحدوثها، (وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) حينئذ من فيها من الأموات أحياء إلى موقف الحساب، فلا تشكوا في ذلك ، ولا تمترُوا فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق (١) ، فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } أي: في شك { مِنَ الْبَعْثِ } وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ } أي: أصل بَرْئه (٢) لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم، عليه السلام { ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ } ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما

يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة -قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط- ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } أي: كما تشاهدونها، { لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: { مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ (٣) فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل (٤) ، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو الصادق المصدوق-:"إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح" (٥) .

وأورد ابن كثير أيضًا ما أخرجه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد -يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم- قال: "يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره

ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص (٢) .

وروا‍ه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق أخر، عن أبي الطُّفَيل، بنحو معناه (٣) .

وقوله: { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا } أي: ضعيفا في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف (٤) به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: { ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ } أي: يتكامل (٥) القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر.

{ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى } ، أي: في حال شبابه وقواه، { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } ، وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف (٦) وضعف الفكر؛ ولهذا قال: { لِكَيْلا (٧) يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا } ، كما قال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } [الروم: ٥٤].

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: { وَتَرَى الأرْضَ هَامِدَةً } : هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلَة التي لا نبت فيها ولا شيء (١) .

وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدي: ميتة.

{ فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } أي: فإذا أنزل الله عليها المطر { اهْتَزَّتْ } أي: تحركت وحييت بعد موتها،

{ وَرَبَتْ } أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: { وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } أي: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ } أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، { وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى } أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ { إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى } [فصلت: ٣٩] (٢)، { إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } فـ { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس: ٨٢].

{ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا } أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية، { وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } أي: يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ } [يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات في هذا كثيرة (٣) .

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى : {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ} هذا احتجاج على العالم بالبداءة الأولى. وقوله : {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} متضمنة التوقيف. وقرأ الحسن بن أبي الحسن {البَعَث} بفتح العين ؛ وهي لغة في {الْبَعْثِ} عند البصريين. وهي عند الكوفيين بتخفيف {بَعَث} . والمعنى : يا أيها الناس إن كنتم في شك من الإعادة. {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ} أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر ، يعني آدم

عليه السلام {مِنْ تُرَابٍ} . {ثُمَّ} خلقنا ذريته. {مِنْ نُطْفَةٍ} وهو المني ؛ سمي نطفة لقلته ، وهو القليل من الماء ، وقد يقع على الكثير منه ؛ ومنه الحديث "حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جورا" . أراد بحر المشرق وبحر المغرب. والنطف : القطر. نطف ينطف وينطف. وليلة نطوفة دائمة القطر. {ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} وهو الدم الجامد. والعلق الدم العبيط ؛ أي الطري. وقيل : الشديد الحمرة. {ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ} وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ ؛ ومنه الحديث "ألا وإن في الجسد مضغة" . وهذه الأطوار أربعة أشهر. قال ابن عباس : "وفي العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح" ، فذلك عدة المتوفى عنها زوجها ؛ أربعة أشهر وعشر.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ؛ كما بيناه بالأحاديث. وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع ، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات ؛ وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل : إنه الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر ، وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

{مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} قال الفراء : {مُخَلَّقَةٍ} تامة الخلق ، {وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} السقط. وقال ابن الأعرابي : {مُخَلَّقَةٍ} قد بدأ خلقها ، {وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} لم تصور بعد. ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، {وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} التي لم يخلق فيها شيء. قال ابن العربي : إذا

رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلقة ؛ لأن الكل خلق الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [المؤمنون : ١٤] فذلك ما قال ابن زيد. قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما تتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقا بعد خلق ، وإذا كان نطفة فهو مخلوق ؛ ولهذا قال الله تعالى : {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [المؤمنون : ١٤] والله أعلم. وقد قيل : إن قوله : {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ؛ أي منهم من يتم الرب سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خديجا ناقصا غير تمام. وقيل : "المخلقة أن تلد المرأة لتمام الوقت". ابن عباس : المخلقة ما كان حيا ، وغير المخلقة السقط. قال :

أفي غير المخلقة البكاء ... فأين الحزم ويحك والحياء

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } أي نقر في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره فيها ، من الأحمال ، والأجنة { إلى أجل مسمى } : أي معلوم معين في علمنا ، وهو الوقت الذي قدره الله لوضع الجنين ، والأجنة تختلف في ذلك حسبما يشاؤه الله جل وعلا ، فتارة تضعه أمه لستة أشهر ، وتارة لتسعة ، وتارة لأكثر من ذلك . وما لم يشأ الله إقراره من الحمل مجته الأرحام وأسقطته ، ووجه رفع : { ونقر } أن المعنى : ونحن نقر في الأرحام ، ولم يعطف على قوله { لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } لأنه ليس علة لما قبله ، فليس المراد : خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، لنقر في الأرحام ما نشاء ، وبذلك يظهر لك رفعه ، وعدم نصبه ، وقراءة من قرأ :

{ ونقر } بالنصب عطفاً على : { لنبين } ، على المعنى الذي نفيناه على قراءة الرفع ، ويؤيد معنى قراءة النصب قوله بعده { ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ } وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً } أي وذلك بعد أن يخلق الله المضغة عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، ثم ينشىء ذلك الجنين خلقاً آخر ، فيخرجه من بطن أمه في الوقت المعين لوضعه في حال كونه طفلاً : أي ولداً بشراً سوياً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ } أي لتبلغوا كمال قوتكم ، وعقلكم ، وتمييزكم بعد إخراجكم من بطون أمهاتكم في غاية الضعف وعدم علم شيء .

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ
عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ
٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ
وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢
يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ
فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ
وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨ ﴾

[العنكبوت: ٨-١٣]

س: وضِّح معنى ما يلي:

﴿بِغَيۡرِ – عِلۡمٖ – وَلَا هُدٗى – وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ – ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ – خِزۡيٞ – عَلَىٰ حَرۡفٖ – فِتۡنَةٌ – ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ – ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ – ٱلۡمَوۡلَىٰ – ٱلۡعَشِيرُ – فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ – ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ – كَيۡدُهُۥ – بَيِّنَٰتٖ – وَٱلَّذِينَ هَادُواْ – وَٱلصَّٰبِـِٔينَ – وَٱلۡمَجُوسَ – يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ – وَٱلدَّوَآبُّ – يُهِنِ – مُّكۡرِمٍ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾	بجهل
﴿وَلَا هُدٗى﴾	بدون بينة ولا برهان
﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾	بدون حجة من كتاب منير ينير للناس أنزله الله
﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾	لاوي عنقه – مستكبرًا – معرضًا
﴿خِزۡيٞ﴾	ذلٌّ وإهانة – إذلال
﴿عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾	على شك – على تردد – على شرط
﴿فِتۡنَةٌ﴾	ابتلاء واختبار
﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾	ارتد عن دينه
﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾	الانحراف الشديد عن طريق الحق والبُعد الشديد عن الصواب
﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾	الذي يتولى الشخص وينصره كابن العم ونحوه، وقيل الوثن الذي اتخذه عابدُه وليًّا يتولاه

﴿ٱلۡعَشِيرُ﴾	المعاشر – الزوج
﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾	فليمدد بحبل، أي: فليتعلق بحبل نازل من السماء أو السقف
﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾	يقطع الحبل كي ينتحر
﴿كَيۡدُهُۥ﴾	تدبيره
﴿بَيِّنَٰتٖ﴾	واضحات
﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾	اليهود
﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾	قومٌ لا دين لهم، وقيل: قوم يعبدون الملائكة
﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾	قوم يعبدون النار ويعظمونها
﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾	يقضي بينهم – يفرق بينهم
﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾	ما يدب على الأرض عمومًا – الحيوانات
﴿يُهِنِ﴾	يُذل – يخزي
﴿مُّكۡرِمٍ﴾	مُعز – شخص يكرم

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: ومن الناس من هو كافر، يجادل في وحدانية الله وقدرته، فيزعم أن الله تبارك وتعالى له شريك ويزعم أن الله ﷻ

لن يقدر على إحياء الأنفس بعد إماتتها، وكل ذلك منه، كل ذلك الجدل، جدلٌ بجهل، وبلا برهان، وبلا حجة، وبلا دليل نزل من عند الله، بلا كتاب مشرق موضح للحق من الباطل، إنما جداله كما بينت بجهل وغباء، وبلا برهان ولا حجة، وبلا دليل نزل في كتاب من عند الله ينير الطريق ويظهر الحق، يجادل بجهل مع كبرٍ واستعلاءٍ وإعراض عن المتحدث معه، والإعراض عمن دعاه إلى الله ﷻ، لاوي عنقه تكبرًا وإعراضًا ليصرف الناس عن طريق الله، فيُظهر رفضه للحق والقرآن بكبرٍ وتعالٍ وغبرور وإعراض حتى يصرف غيره أيضًا عن هذا الطريق، فهذا ولِصنيعه السيء الذي يصنعه يجازى من جنس العمل فيُخزى ويذل ويهان يوم القيامة، ويُذيقه الله عذاب الحريق، ذلك الذي نالك أيها المتكبر المجادل المعاند المغرور، ذلك الذي نالك من العذاب بسبب ما اكتسبته يداك وما اجترمته من الآثام وأن الله ليس بظلام للعبيد، لا يبخص العبيد حقوقهم، بل جوزيته أيها الظالم المتكبر المتعالي المغرور بما كسبته يداك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يخاصم في توحيد الله وإفراده بالألوهة بغير علم منه بما يخاصم به(وَلا هُدًى) يقول: وبغير بيان معه لما يقول ولا برهان.

(وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ) يقول: وبغير كتاب من الله أتاه لصحة ما يقول.

(منير) يقول ينير عن حجته. وإنما يقول ما يقول من الجهل ظنا منه وحسبانا، وذكر أن عني بهذه الآية والتي بعدها النضر بن الحارث من بني عبد

الدار.

وقال: في تأويل قوله تعالى : { ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) }

يقول تعالى ذكره: يجادل هذا الذي يجادل في الله بغير علم(ثَانِيَ عِطْفِهِ) .

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله وصف بأنه يثني عطفه ، وما المراد من وصفه إياه بذلك، فقال بعضهم: وصفه بذلك لتكبره وتبختره، وذكر عن العرب أنها تقول: جاءني فلان ثاني عطفه: إذا جاء متبخترا من الكبر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لاوٍ رقبته.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يعرض عما يدعى إليه فلا يسمع له.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) قال: لاويا رأسه، معرضا موليا، لا يريد أن يسمع ما قيل له، وقرأ(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا).

قال أبو جعفر: وهذه الأقوال الثلاثة متقاربات المعنى، وذلك أن من كان ذا استكبار فمن شأنه الإعراض عما هو مستكبر عنه ولّي عنقه عنه والإعراض.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هذا المخاصم في الله بغير علم أنه من كبره إذا دُعي إلى الله ، أعرض عن داعيه ، لوى عنقه عنه ولم يسمع ما يقال له استكبارا.

وقوله(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) يقول تعالى ذكره: يجادل هذا المشرك في الله

بغير علم معرضا عن الحق استكبارا، ليصدّ المؤمنين بالله عن دينهم الذي هداهم له ويستزلهم عنه،(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) يقول جلّ ثناؤه: لهذا المجادل في الله بغير علم في الدنيا خزي ، وهو القتل والذل والمهانة بأيدي المؤمنين، فقتله الله بأيديهم يوم بدر.

وقوله(وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) يقول تعالى ذكره: ونحرقه يوم القيامة بالنار. وقوله(ذلك بما قدمت يداك) يقول جلّ ثناؤه: ويقال له إذا أذيق عذاب النار يوم القيامة: هذا العذاب الذي نذيقكه اليوم بما قدمت يداك في الدنيا من الذنوب والآثام ، واكتسبته فيها من الإجرام(وأن الله ليس بظلام للعبيد) يقول: وفعلنا ذلك لأن الله ليس بظلام للعبيد ، فيعاقب بعض عبيده على جُرْم ، وهو يغفر مثله من آخر غيره، أو يحمل ذنب مذنب على غير مذنب ، فيعاقبه به ويعفو عن صاحب الذنب ، ولكنه لا يعاقب أحدا إلا على جرمه ، ولا يعذب أحدا على ذنب يغفر مثله لآخر إلا بسبب استحق به منه مغفرته.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلّدين في قوله: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ } ، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع، فقال: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ } أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى.

وقوله: { ثَانِيَ عِطْفِهِ } قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه. وقال مجاهد، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم: { ثَانِيَ عِطْفِهِ } أي:

لاوي عنقه، وهي رقبته، يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقبته استكبارًا، كقوله تعالى: { وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [الذاريات: ٣٨ ، ٣٩]، وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا } [النساء: ٦١]، وقال: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } [المنافقون: ٥]: وقال لقمان لابنه: { وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ } [لقمان: ١٨] أي: تميله عنهم استكبارًا عليهم، وقال تعالى: { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [لقمان: ٧].

وقوله: { لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ } : قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين (٤) ، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذي يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: { لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه، { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ } أي: يقال له هذا تقريعًا وتوبيخا، { وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ } كقوله تعالى: { خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ } [الدخان: ٤٧ - ٥٠].

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – ومن الناس يُعبد الله ﷻ على شكٍّ وتردد، فهو مترددٌ بين الإيمان والكفر، وبين الإسلام والشرك، فإن أصابه خير كأن رُزق مالًا أو أنجبت زوجته ذكورًا أو عُوفي البدن بعد سقمٍ أو أنتجت إبلهم ومواشيهم أو غير ذلك من صور الخير اطمأن لهذا الدين، اطمأن للإسلام، وقال هذا دين خيرٍ، ودينٌ طيبٌ، وإن أصابه ابتلاء واختبار من الله ﷻ بقلةٍ في المال أو الولد أو رزقت امرأته إناثًا ولم تنتج إبله ومواشيه ولم ينزل عليه الغيث أو أصيب بالضر في بدنه، أو الضر في أهله، قال: هذا ليس بدين طيب ويرتد عن الإسلام إلى الكفر قد خسر بهذا الصنيع، وذلك الارتداد الدنيا والآخرة، خسر مودة أهل الإيمان في الدنيا، وخسر جنات النعيم في الآخرة، وورث في الدنيا الذل والصغار وفي الآخرة الشقاء والهوان، ذلك هو الخسران الموضح أنه صاحبه قد خسر يقينًا بلا شكٍّ ولا افتراءٍ.

وهذا الذي انقلب على وجهه اتجه بعد أن كان يدعو الله ﷻ إلى دعاء صنم أو وثن لا يملك له نفعًا ولا يكشف عنه ضرًّا، ذلك هو الضلال البعيد، الانصراف الشديد عن الحق، يدعو وثنًا أو صنمًا أو أي شيء كان، وكل هذه ضرها أقرب إليه من نفعها، بل لا نفع لها على الإطلاق فلبئس ابن العم الذي عبد غير الله، ولبئس الصاحب والمُعاشر الذي عبد غير الله، ولبئس الوثن الذي عُبد من دون الله.

أما أهل الإيمان في المقابل، وهم الذين ثبتوا على دينهم وعبدوا الله على كل حال في السراء والضراء، وكانوا له شاكرين وبقضائه وقدره راضين فهو الذين صدقت قلوبهم وانقادت جوارحهم ونطقت ألسنتهم بالتوحيد والقول الصالح وترتيل الكتاب العزيز هؤلاء يدخلهم الله ﷻ جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿﴾ فيعطي أهل كرامته من واسع فضله ويثيبهم ويعذب أهل معصيته والشرك به لا يمنعه مما يريد مانعٌ ولا يحول بينه وبين ما يريد حائلٌ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يعني جلّ ذكره بقوله(ومن الناس من يعبد الله على حرف) أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مهاجرين من باديتهم، فإن نالوا رخاء من عيش بعد الهجرة والدخول في الإسلام أقاموا على الإسلام، وإلا ارتدّوا على أعقابهم، فقال الله(ومن الناس من يعبد الله) على شك،(فإن أصابه خير اطمأن به) وهو السعة من العيش وما يشبهه من أسباب الدنيا اطمأنّ به يقول: استقرّ بالإسلام وثبت عليه(وإن أصابته فتنة) وهو الضيق بالعيش وما يشبهه من أسباب الدنيا(انقلب على وجهه) يقول: ارتدّ فانقلب على وجهه الذي كان عليه من الكفر بالله.

وأورد عن ابن زيد بسندٍ صحيح، في قوله(ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) قال: هذا المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلا لما صَلَح من دنياه. وإذا أصابته شدّة أو فتنة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقوله: (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ) يقوله: غَبن هذا الذي وصف جلّ ثناؤه صفته دنياه، لأنه لم يظفر بحاجته منها بما كان من عبادته الله على الشك، ووضع في تجارته فلم يربح والآخرة : يقول: وخسر الآخرة، فإنه معذّب فيها بنار الله الموقدة. وقوله(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) يقول : وخسارته الدنيا والآخرة هي الخسران : يعني الهلاك المبين : يقول : يبين لمن فكّر فيه وتدبره أنه قد خسر الدنيا والآخرة .

وقال في تأويل قوله تعالى : { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) }

يقول تعالى ذكره: وإن أصابت هذا الذي يعبد الله على حرف فتنة، ارتدّ عن دين الله، يدعو من دون الله آلهة لا تضرّه إن لم يعبدها في الدنيا ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها (ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) يقول: ارتداده ذلك داعيا من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة ، والذهاب عن دين الله ذهابا بعيدا.

وقال في تأويل قوله تعالى: { يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) }

يقول تعالى ذكره: يدعو هذا المنقلب على وجهه من أن أصابته فتنة آلهة لضرّها في الآخرة له، أقرب وأسرع إليه من نفعها. وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه يدعو مَنْ ضَرّه أقرب من نفعه.

وقوله: (لَبِئْسَ الْمَوْلَى) ، يقول: لبئس ابن العم هذا الذي يعبد الله على حرف. (وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) يقول: ولبئس الخليط المعاشر والصاحب: هو.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: (وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) قال: العشير: هو المعاشر الصاحب.

وقد قيل: عني بالمولى في هذا الموضع: الولي الناصر.

وكان مجاهد يقول: عني بقوله(لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) الوثن.

وقال في تأويل قوله تعالى : { إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) }

يقول تعالى ذكره: إن الله يدخل الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله في الدنيا، وانتهوا عما نهاهم عنه فيها جنات يعني بساتين (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) يقول: تجري الأنهار من تحت أشجارها (إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) فيعطي ما شاء من كرامته أهل طاعته، وما شاء من الهوان أهل معصيته.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس:

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ } قال: كان الرجل يَقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما، ونُتِجَت خيلُه، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتَج خيله قال: هذا دين سوء[1].

عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيُسْلِمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: "إن ديننا هذا لصالح، فتمَسَّكُوا به". وإن وجدوا عام جُدوبة وعام ولاد سَوء وعام قحط، قالوا: "ما في ديننا هذا خير". فأنزل الله على نبيه: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ } .

وقوله: { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ } أي: فلا هو حَصَل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال:

(١)البخاري (٤٧٤٢).

{ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ } أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره، { ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ . يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ } أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: { لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } : قال مجاهد: يعني الوثن، يعني: بئس هذا الذي دعا به من دون الله مولى، يعني: وليًا وناصرًا، { وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } وهو المخالط والمعاشر.

واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف، { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ } .

وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

ولما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، [وتركوا المنكرات] (٣) فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات الجنات.

ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: { إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } .

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ سبب نزول؟

ج: لم أقف لها على سبب نزول صحيح. فالله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – من كان يظن أن الله ﷻ لن ينصر نبيه محمدًا ﷺ، ويغتاظ إذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ، ويغتاظ إذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ، ويريد أن يفعل أي شيء لمنع النصر عن هذا النبي الكريم ﷺ وذلك حتى يُذهب عن نفسه الغيظ الذي يحصل له إذا انتصر هذا النبي الكريم، فليفعل ما استطاع فمهما فعل لمنع النصر عن هذا النبي ﷺ، ومن ثَمَّ لإذهاب الغيظ عن نفسه، فلن يستطيع بحالٍ من الأحوال أن يُذهب الغيظ عن نفسه، ولن يستطيع بحالٍ من الأحوال أن يمنع نصرة هذا النبي، فليذهب ولينتحر وليشنق نفسه حتى يذهب عنه هذا الغيظ، ولو فعل أيضًا وشنق نفسه وذلك بحبل نزل من السماء أو من سقف البيت، فلن يتوقف نصر هذا النبي الكريم ﷺ، وكذا لن يمنعه الله من رزق كتبه له، فكما أنه لن يمتنع النصر ولن يمتنع الرزق فكذلك فلن يذهب هذا الغيظ ولو انتحر هذا المغتاظ.

وقوله تعالى: ﴿﴾ حاصل معناه: وكما بينت لكم حججي من قبلي، وقدرت على إحياء الأرض بعد موتها أنزلت هذا القرآن فيه آيات واضحات الدلالة ظاهرات المعاني، ولكن الله ﷻ هو الذي يوفق من أراد له الهداية والتوفيق.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في المعنيّ بالهاء التي في قوله:(أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ) .

فقال بعضهم: عُنِي بها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، فتأويله على قول بعض قائلي ذلك: من كان من الناس يحسب أن لن ينصر الله محمدا في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل، وهو السبب إلى السماء: يعني سماء البيت، وهو سقفه، ثم ليقطع السبب بعد الاختناق به، فلينظر هل يذهبن اختناقه ذلك، وقطعه السبب بعد الاختناق ما يغيظ، يقول: هل يذهبن ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

وأورد عن قتادة قوله: ﴿ من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ﷺ، (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) يقول: بحبل إلى سماء البيت ﴾ يقول: ثم ليختنق ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ(١).

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ ابن زيد، في قوله:(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) فقرأ حتى بلغ(هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) قال: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه ومنه: فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه، فإن أصله في السماء، فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه من الله، فإنه لا يكايده حتى يقطع أصله عنه، فكايد ذلك حتى قطع أصله عنه.(فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) ما دخلهم من ذلك، وغاظهم الله به من نصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وما ينزل عليه.

قال الطبري: وقال آخرون ممن قال «الهاء» التي في قوله:(يَنْصُرَهُ) من ذكر محمد ﷺ؛ معنى النصر هاهنا الرزق، فعلى قول هؤلاء تأويل الكلام: من كان

(١) وهو صحيح بمجموع طريقيه عن قتادة.

يظنّ أن لن يرزق الله محمدا في الدنيا، ولن يعطيه. وذكروا سماعا من العرب: من ينصرني نصره الله، بمعنى: من يعطيني أعطاه الله، وحكوا أيضا سماعا منهم: نصر المطر أرض كذا: إذا جادها وأحياها.

واستشهد لذلك ببيت الفقعسيّ:

وإنَّكَ لا تُعْطِي امْرأً فَوْقَ حَظِّهِ ... ولا تَمْلِكُ الشَّقَّ الَّذِي الغَيْثُ ناصِرُهُ

وقال آخرون: الهاء في ينصره من ذكر "مَنْ". وقالوا: معنى الكلام: من كان يظنّ أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب إلى سماء البيت ثم ليختنق، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، أنه لا يرزق!

وأورد الطبري بسندٍ صحيح قال: سئل عكرمة عن قوله: ﴿﴾ قال: يختنق.

قال الطبري:

وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك قول من قال: الهاء من ذكر نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ودينه وذلك أن الله تعالى ذكره، ذكر قومًا يعبدونه على حرف وأنهم يطمئنون بالدين إن أصابوا خيرا في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدّون عن دينهم لشدّة تصيبهم فيها، ثم أتبع ذلك هذه الآية، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توبيخا لهم على ارتدادهم عن الدين، أو على شكهم فيه نفاقهم، استبطاء منهم السعة في العيش، أو السبوغ في الرزق. وإذا كان الواجب أن يكون ذلك عقيب الخبر عن نفاقهم، فمعنى الكلام إذن، إذ كان كذلك: من كان يحسب أن لن يرزق الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته في الدنيا، فيوسع عليهم من فضله فيها، ويرزقهم في الآخرة من سَني عطاياه وكرامته، استبطاء منه فعل الله ذلك به وبهم، فليمدد بحبل إلى سماء فوقه: إما سقف بيت، أو غيره مما يعلق به السبب من فوقه، ثم يختنق إذا اغتاظ من بعض ما

قضى الله، فاستعجل انكشاف ذلك عنه، فلينظر هل يذهبنّ كيده اختناقه كذلك ما يغيظ، فإن لم يذهب ذلك غيظه؛ حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه، فكذلك استعجاله نصر الله محمدا ودينه لن يُؤَخِّر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته، ولا يعجِّل قبل حينه، وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان، تباطئوا عن الإسلام، وقالوا: نخاف أن لا ينصر محمد صلى الله عليه وسلم، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ولا يُرَوُّوننا، فقال الله تبارك وتعالى لهم: من استعجل من الله نصر محمد، فليمدد بسبب إلى السماء فليختنق فلينظر استعجاله بذلك في نفسه، هل هو مُذْهِبٌ غيظه؟ فكذلك استعجاله من الله نصر محمد غير مقدّم نصره قبل حينه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) يقول تعالى ذكره: وكما بيَّنت لكم حُجَجي على من جحد قدرتي على إحياء من مات من الخلق بعد فنائه، فأوضحتها أيها الناس، كذلك أنزلنا إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن آيات بيِّنات، يعني دلالات واضحات، يهدين من أراد الله هدايته إلى الحقّ (وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) يقول جلّ ثناؤه: ولأن الله يوفق للصواب ولسبيل الحقّ من أراد، أنزل هذا القرآن آيات بيِّنات، فأن في موضع نصب.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ } أي: بحبل { إِلَى السَّمَاءِ } أي: سماء بيته، { ثُمَّ لِيَقْطَعْ } يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: { فَلْيَمْدُدْ (١) بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ } أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء، { ثُمَّ لِيَقْطَعْ } ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [غافر: ٥١ ، ٥٢]؛ ولهذا قال: { فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ }.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: { وَكَذَلِكَ أَنزلْنَاهُ } أي: القرآن { آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجةً من الله على الناس { وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ } أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة (٣) القاطعة في ذلك، { لا (٤) يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى : {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه. {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} أي فليطلب حيلة يصل بها إلى

السماء. {ثُمَّ لْيَقْطَعْ} أي ثم ليقطع النصر إن تهيأ له {فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} وحيلته ما يغيظه من نصر النبي صلى الله عليه وسلم. والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر. وكذا قال ابن عباس: "إن الكناية في {يَنْصُرَهُ اللَّهُ} ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي من كان يظن ممن يعادي محمدا صلى الله عليه وسلم ومن يعبد الله على حرف أنا لا ننصر محمدا فليفعل كذا وكذا". وعن ابن عباس أيضا "أن الهاء تعود على {مَنْ} والمعنى: من كان يظن أن الله لا يرزقه فليختنق، فليقتل نفسه؛ إذ لا خير في حياة تخلو من عون الله". والنصر على هذا القول الرزق.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

في هذه الآية الكريمة أوجه من التفسير معروفة عند العلماء، وبعضها يشهد لمعناه قرآن.

الأول: أن المعنى: من كان من الكفرة الحسدة له صلى الله عليه وسلم، { يظن أن لن ينصره الله } ، أي أن لن ينصر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ } أي بحبل إلى السماء: أي سماء بيته، والمراد به السقف: لأن العرب تسمى كل ما علاك سماء كما قال: ٪ (وقد يسمى سماء كل مرتفع ٪ وإنما الفضل حيث الشمس والقمر) ٪

كما أوضحناه في سورة الحجر.

والمعنى: فليعقد رأس الحبل في خشبة السقف { ثُمَّ لْيَقْطَعْ } أي ليختنق

بالحبل ، فيشده في عنقه ، ويتدلى مع الحبل المعلق في السقف حتى يموت ، وإنما أطلق القطع على الاختناق ، لأن الاختناق يقطع النفس بسبب حبس مجاريه ، ولذا قيل للبهر وهو تتابع النفس : قطع ، فلينظر إذا اختنق { هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ } أي هل يذهب فعله ذلك ما يغيظه من نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، في الدنيا والآخرة .

والمعنى : لا يذهب ذلك الذي فعله ذلك الكافر الحاسد ما يغيظه ويغضبه من نصر الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الزمخشري : وسمي فعله كيداً ، لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره ، أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد به نفسه ، والمراد : ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه ا ه منه .

وحاصل هذا القول : أن الله يقول لحاسديه صلى الله عليه وسلم ، الذين يتربصون به الدوائر ، ويظنون أن ربه لن ينصره : موتوا بغيظكم ، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم ، وممن قال بهذا القول : مجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، وعطاء ، وأبو الجوزاء ، وغيرهم . كما نقله عنهم ابن كثير ، وهو أظهرها عندي .

ومما يشهد لهذا المعنى من القرآن : قوله تعالى . { وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ } .

الوجه الثاني : أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة ، والحال أن النصر يأتيه صلى الله عليه وسلم من السماء ، فليمدد بسبب إلى السماء فيرتقي بذلك السبب ، حتى يصعد إلى السماء ، فيقطع نزول الوحي من السماء ، فيمنع النصر عنه صلى الله عليه

وسلم .

والمعنى : أنه وإن غاظه نصر الله لنبيه . فليس لـه حيلة ، ولا قدرة على منع النصر ، لأنه لا يستطيع الارتقاء إلى السماء ومنع نـزول النصر منها عليه صلى الله عليه وسلم : وعلى هذا القول : فصيغة الأمر في قوله { فَلْيَمْدُدْ } وقوله { ثُمَّ لْيَقْطَعْ } للتعجيز { فَلْيَنْظُرْ } ذلك الحاسد العاجز عن قطع النصر عنه صلى الله عليه وسلم : هل يذهب كيده إذا بلغ غاية جهده في كيد النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ما يغيظه من نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : أنه إن أعمل كل ما في وسعه ، من كيد النَّبي صلى الله عليه وسلم ليمنع عنه نصر الله ، فإنه لا يقدر على ذلك ، ولا يذهب كيده ما يغيظه من نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

ومما يشهد لهذا القول من القرآن قوله تعالى { أَمْ لَهُم مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ * جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحَزَابِ } وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة الحجر .

وأورد قولًا ثالثًا وحكم عليه بالسقوط.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: إن الذين آمنوا والذين هادوا وهم اليهود، والصابئين، وهم قوم لا دين لهم، وقيل: هم قوم يعبدون الملائكة، والنصارى، والمجوس وهم قوم يعبدون النار ويخدمونها والذين أشكروا عن

الله يفصل بينهم، يقضي بينهم يوم القيامة فيجازي كلًّا بعمله إن الله على كل شيء شهيد، شهيدٌ على الأقوال، وشهيدٌ على الأعمال، لا يخفى عليه شيء منها ولا يغيب، بل ويعلم خائنات الأعين وما تخفيه الصدور، وسيجازي كلًّا بعمله.

هذا، ومن أهل العلم من كان يحمل قوله تعالى: ﴿﴾ في هذا المقام على أهل النفاق، كالذي يفهم من صنيع الطبري رَحِمَهُ اللهُ، أما الأكثرون فحملوها على أهل الإيمان الذين هم أهل التصديق والعمل والشهادتين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الفصل بين هؤلاء المنافقين الذين يعبدون الله على حرف، والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام، والذين هادوا، وهم اليهود والصابئين والنصارى والمجوس الذي عظموا النيران وخدموها، وبين الذين آمنوا بالله ورسله إلى الله، وسيفصل بينهم يوم القيامة بعدل من القضاء وفصله بينهم إدخاله النار الأحزاب كلهم والجنة المؤمنين به وبرسله، فذلك هو الفصل من الله بينهم.

وأورد من طريق معمر عن قتادة قال: الصابئون: قوم يعبدون الملائكة، ويصلون للقبلة، ويقرءون الزبور. والمجوس: يعبدون الشمس والقمر والنيران. والذين أشركوا: يعبدون الأوثان. والأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) يقول: إن الله على كل شيء من أعمال هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم الله جلّ ثناؤه، وغير ذلك من الأشياء

كلها شهيد لا يخفى عنه شيء من ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين -وقد قدمنا في سورة "البقرة" التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم- والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى { يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، ويحكم بينهم بالعدل (٥) ، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به (٦) النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} أي بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم. {وَالَّذِينَ هَادُوا} اليهود ، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام. {وَالصَّابِئِينَ} هم قوم يعبدون النجوم. {وَالنَّصَارَى} هم المنتسبون إلى ملة عيسى. {وَالْمَجُوسَ} هم عبدة النيران القائلين أن للعالم أصلين : نور وظلمة. قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان وواحد للرحمن. وقيل : المجوس في الأصل النجوس لتدينهم باستعمال النجاسات ؛ والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين ، والأيم والأين. وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفى. {وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} هم العرب عبدة الأوثان . {إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي يقضي ويحكم ؛ فللكافرين النار ، وللمؤمنين الجنة.

وقال:

{إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} أي من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم ، فلا يعزب عنه شيء منها ، سبحانه!

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨) ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم-: ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض عمومًا، فكل من في السموات والارض يسجد لله ﷻ، وإن كان الكافر يمتنع من السجود فظلُّهُ يسجد، وكذا فهو يخضع لأمر الله وأقدار الله تجري فيه وهو يريد أو لا يريد.

وكذا تسجد لله ﷻ الشمس والقمر مكا فيا لحديث عن أبي ذر رضي الله عنه في شأن الشمس أنها تذهب فتسجد تحت العرش، وكذا تسجد لله ﷻ النجوم كما قال تعالى: ﴿﴾.

والجبال كذلك تسجد لله ﷻ، والشجر كذلك يسجد لله وكل ما يدب على وجه الأرض، وكثيرٌ من الناس يسجد لله طوعًا واختيارًا، وكثير منهم أبى أن يسجد لله ﷻ مختارًا، وإن كان ظله يسجد لله، فمن ثَمَّ ولكونه أبى أن يسجد، فحق عليه ما كتبه الله عليه من الشقاوة والعذاب، ومن يُهنه الله ﷻ ويذله فلن تجد له من يكرمه ويعزه ﴿﴾ فيهين من يشاء ويذله، ويكرم من يشاء ويعزه وعمومًا يفعل ما يريد ﷻ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تر يا محمد بقلبك، فتعلم أن الله يسجد له من في السماوات من الملائكة، ومن في الأرض من الخلق من الجنّ وغيرهم، والشمس والقمر والنجوم في السماء، والجبال،

والشجر، والدوابّ في الأرض، وسجود ذلك ظلاله حين تطلع عليه الشمس، وحين تزول، إذا تحولّ ظلّ كل شيء فهو سجوده.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي العالية الرياحي يقول: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجدا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين، وزاد محمد: حتى يرجع إلى مطلعه.

وقوله:(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) يقول: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنون بالله.

وقال في تأويل قوله تعالى: { وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٧) }.

يقول تعالى ذكره: ومن يهنه الله من خلقه فيُشْقِه،(فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) بالسعادة يسعده بها، لأن الأمور كلها بيد الله، يوفِّق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء، ويُشقي من أراد، ويسعد من أحبّ.

وقوله:(إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) يقول تعالى ذكره: إن الله يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته، وإكرام من أراد كرامته، لأن الخلق خلقه والأمر أمره،(لا يسئل عما يفعل وهم يسألون) . وقد ذُكر عن بعضهم أنه قرأه(فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ) بمعنى: فما له من إكرام، وذلك قراءة لا أستجيز القراءة بها لإجماع الحجة من القرّاء على خلافه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد (١) لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود [كل شيء مما] (٢) يختص به، كما قال: { أَوَلَمْ يَرَوْا (٣) إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ

وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } [النحل: ٤٨]. وقال هاهنا: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ } أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } [الإسراء: ٤٤].

وقوله: { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ } : إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة { لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [فصلت: ٣٧].

وفي الصحيحين عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدري أين تذهب هذه الشمس؟". قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت" (٤) .

ثم قال ابن كير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ ﴾ أي: الحيوانات كلها.

ثم قال:

وقوله: { وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ } أي: يسجد لله طوعا مختارًا متعبدًا بذلك، { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } أي: ممن امتنع وأبى واستكبر، { وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } .

❁ ❁ ❁

س: هل هنا سجود في هذه الآية الكريمة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾؟

ج: الأحاديث الواردة في السجود عند هذه الآية بخصوصها كلها ضعيفة الأسانيد لكن نقل بعض العلماء الإجماع على مشروعية السجود فيها.

قال ابن عبد البر(١): وأجمعوا على أن الأُولى من الحج يُسجد فيها.

❁ ❁ ❁

(١) الاستذكار (٨/ ١٠٢)، ولمزيد انظر الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٩).

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن
نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ
٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ
أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ
مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤ ﴾

[الحج: ١٩-٢٤].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿خَصْمَانِ - ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ - قُطِّعَتْ لَهُمْ - ٱلْحَمِيمُ - يُصْهَرُ بِهِۦ - مَّقَٰمِعُ - مِنْ غَمٍّ - يُحَلَّوْنَ فِيهَا - أَسَاوِرَ - صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿خَصْمَانِ﴾	فريقان بينهما خصومة
﴿ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾	تجادلوا في شأن الله ﷻ وتحاربوا من أجل ذلك فمن قائل إنه إله واحد وهم أهل الإيمان، ومنهم من جعل له شريك أو صاحبة أو ولد
﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾	فصِّلت لهم – خيِّطت
﴿ٱلْحَمِيمُ﴾	الماء المغلي الذي بلغ أعلى درجات غليانه
﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾	يُذاب به
﴿مَّقَٰمِعُ﴾	مطارق من حديد
﴿مِنْ غَمٍّ﴾	من شدة الغم والألم والعذاب
﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾	يلبسون فيها متحلين بها
﴿أَسَاوِرَ﴾	جمع أسورة، تُلبس في اليد
﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾	طريق الله ﷻ المحمود من أوليائه

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالخصمين المذكورين في قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أنهم المتبارزون يوم بدر من أهل الإيمان حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ومن أهل الكفر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

أخرج البخاري من طريق قيس بن عباد قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يُقْسِمُ قَسَمًا إِنَّ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ بَرَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ[1].

وعند البخاري أيضًا من طريق قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ قَيْسٌ (وَهُوَ أَحَدُ الرّوَاة): وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، قَالَ: هُمْ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ وَعُبَيْدَةُ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ[2].

الثاني: أن المراد أهل الإيمان، وأهل الكتاب اليهود والنصارى.

الثالث: أن المراد أهل الإيمان، وأهل الكفر عمومًا.

الرابع: أن المراد الجنة والنار.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَحَاجَّتْ النَّارُ وَالْجَنَّةُ فَقَالَتْ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَعَجَزُهُمْ. فَقَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ**

(١) البخاري (٣٩٦٦)، ومسلم (٣٣٠٣).
(٢) البخاري (٤٧٤٤).

مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتَقُولُ قَطْ قَطْ فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»(١).

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

اختلف أهل التأويل في المعنيّ بهذين الخصمين اللذين ذكرهما الله، فقال بعضهم: أحد الفريقين: أهل الإيمان، والفريق الآخر: عبدة الأوثان من مشركي قريش الذين تبارزوا يوم بدر.

وأورد بعض الآثار بذلك ثم قال:

وقال آخرون: ممن قال أحد الفرقين فريق الإيمان، بل الفريق الآخر أهل الكتاب.

وقال آخرون منهم: بل الفريق الآخر الكفار كلهم من أيّ ملة كانوا.

وقال آخرون: الخصمان اللذان ذكرهما الله في هذه الآية: الجنة والنار.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال: عني بالخصمين جميع الكفار من أيّ أصناف الكفر كانوا وجميع المؤمنين، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب، لأنه تعالى ذكره ذكر قبل ذلك صنفين من خلقه: أحدهما أهل طاعة له بالسجود له، والآخر: أهل معصية له، قد حقّ عليه العذاب، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ثم قال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ

(١) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

الْعَذَابُ) ، ثم أتبع ذلك صفة الصنفين كليهما وما هو فاعل بهما، فقال:(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) وقال الله(إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ) ؛ فكان بيِّنا بذلك أن ما بين ذلك خبر عنهما.

فإن قال قائل: فما أنت قائل فيما رُوي عن أبي ذرّ إنَّ ذَلكَ نزل في الذين بارزوا يوم بدر؟ قيل: ذلك إن شاء الله كما روي عنه، ولكن الآية قد تنزل بسبب من الأسباب، ثم تكون عامة في كل ما كان نظير ذلك السبب، وهذه من تلك، وذلك أن الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شرك وكفر بالله، والآخر أهل إيمان بالله وطاعة له، فكل كافر في حكم فريق الشرك منهما في أنه لأهل الإيمان خصم، وكذلك كل مؤمن في حكم فريق الإيمان منهما في أنه لأهل الشرك خصم.

فتأويل الكلام: هذان خصمان اختصموا في دين ربهم، واختصامهم في ذلك معاداة كل فريق منهما الفريق الآخر ومحاربته إياه على دينه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: هذان فريقان يختصمون في الله ﷻ منهم من يقول إنه إلهٌ واحدٌ ومنهم من يقول معه شريك، منهم من يقول سنبعث بعد الموت، ومنهم من يقول الله غير قادر على هذا.

منهم من يقول إن الله ﷻ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ومنهم من يدعي لله ﷻ الولد، فاختصموا في الله ﷻ، وهذان الفريقان قدمنا ذكرهما منهم المتبارزون يوم بدر، أهل الإيمان: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وأهل الكفر: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة بن ربيعة، تبارزوا بين يدي غزوة بدر، أي: قبيل المعركة خرجوا للمبارزة فكان النصر حليفًا لأهل الإيمان، ولا يقتصر الاختصام على هؤلاء، بل يمتد فيشمل كل كافر وكل مشرك.

ثم توعد الله ﷻ أهل الكفر فقال: ﴿﴾ فصِّلت وخُيِّطت وحيكت لهم ثياب من نار على قدر أجسامهم ومع ذلك فالحميم، الماء الذي بلغ أعلى درجات غليانه يصب فوق رؤوسهم فيذاب به ما في بطونهم من أمعاء كما قال تعالى: ﴿﴾ فالذي في البطن من طعام وخلافه يُذاب وينصهر بسبب هذا الماء المغلي الذي يصب فوق رؤوسهم، وكذا تُصهر به الجلود وتذاب، ولهم أيضًا مقامع من حديد (مطارق من حديد يضربون بها على رؤوسهم، فإذا رفعتهم النار على وجهها ضربوا بمطارق الحديد فردوا إلى أسفلها، فهذا قوله: ﴿﴾ بسبب ما فيها من الغم أرجعته مطارق الحديد التي يضرب بها على رأسه إلى النار مرةً ثانية، ويُقال لهم: ذوقوا عذاب النار المحرقة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ -بعد أن أورد الأقوال في الخصمين المختصمين في ربهم:

وقوله:(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) يقول تعالى ذكره: فأما الكافر بالله منهما فانه يقطع له قميص من نحاس من نار.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله:(يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) يقول: يذاب بالحميم الذي يصبّ من فوق رءوسهم ما في بطونهم من الشحوم، وتشوى جلودهم منه فتتساقط، والصهر: هو الإذابة، يقال منه: صهرت الألية بالنار: إذا أذبتها أصهرها صهرا؛ ومنه قول الشاعر.

تَرْوِي لَقًى أُلْقِي في صَفْصَفٍ تَصْهَرُهُ الشَّمْسُ وَلا يَنْصَهِر

ومنه قول الراجز:

شَكَّ السَّفافِيدِ الشَّوَاءَ المُصْطَهَرْ

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) تضرب رءوسهم بها الخزنة إذا أرادوا الخروج من النار حتى ترجعهم إليها.

وقوله: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) يقول: كلما أراد هؤلاء الكفار الذين وصف الله صفتهم الخروج من النار مما نالهم من الغم والكرب، ردّوا إليها.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن أبي ظبيان، قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ:(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) وقد ذكر أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش جهنم فتلقي من فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان فيها بالمقامع، ويقولون لهم إذا ضربوهم بالمقامع:(ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) .

وقال:

وعني بقوله:(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) ويقال لهم ذوقوا عذاب النار،

وقيل عذاب الحريق والمعنى: المحرق، كما قيل: العذاب الأليم، بمعنى: المؤلم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } كقوله { وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى : {فَالَّذِينَ كَفَرُوا} يعني من الفرق الذين تقدم ذكرهم. {قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ} أي خيطت وسويت ؛ وشبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب. وقوله {قُطِّعَتْ} أي تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار ؛ وذكر بلفظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق ؛ قال الله تعالى : {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ} [المائدة : ١١٦] أي يقول الله تعالى. ويحتمل أن يقال قد أعدت الآن تلك الثياب لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار. وقال سعيد بن جبير : {مِنْ نَارٍ} من نحاس ؛ فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهي السرابيل المذكورة في {قَطِرَانٍ} [إبراهيم : ٥٠] وليس في الآنية شيء إذا حمي يكون أشد حرا منه. وقيل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم ؛ فصارت من هذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب ؛ مثل {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} [النبأ : ١٠]. {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ} أي الماء الحار المغلى بنار جهنم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

{يُصْهَرُ} يذاب. {بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ} والصهر إذابة الشحم. والصهارة ما ذاب منه ؛ يقال : صهرت الشيء فانصهر ، أي أذبته فذاب ، فهو صهير. قال ابن أحمر يصف فرخ قطاة :

تروي لقى ألقي في صفصف   تصهره الشمس فما ينصهر

أي تذيبه الشمس فيصبر على ذلك. {وَالْجُلُودُ} أي وتحرق الجلود ، أو تشوى الجلود ؛ فإن الجلود لا تذاب ؛ ولكن يضم في كل شيء ما يليق به ، فهو كما تقول : أتيته فأطعمني ثريدا ، إي والله ولبنا قارصا ؛ أي وسقاني لبنا. وقال الشاعر :

علفتها تبنا وماء باردا

{وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} أي يضربون بها ويدفعون ؛ الواحدة مقمعة ، ومقمع أيضا كالمحجن ، يضرب به على رأس الفيل. وقد قمعته إذا ضربته بها. وقمعته وأقمعته بمعنى ؛ أي قهرته وأذللته فانقمع. قال ابن السكيت : أقمعت الرجل عني إقماعا إذا طلع عليك فرددته عنك. وقيل : المقامع المطارق ، وهي المرازب أيضا.

وقال القرطبي أيضًا:

وقيل : المقامع سياط من نار ، وسميت بذلك لأنها تقمع المضروب ، أي تذلله.

وقوله تعالى : {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ} أي من النار. {أُعِيدُوا فِيهَا} بالضرب بالمقامع. وقال أبو ظبيان : ذكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتفور فتلقي من فيها إلى أعلى أبوابها

فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع. وقيل: إذا اشتد غمهم فيها فروا؛ فمن خلص منهم إلى شفيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع، ويقولون لهم {وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} أي المحرق؛ مثل الأليم والوجيع. وقيل: الحريق الاسم من الاحتراق. تحرق الشيء بالنار واحترق، والاسم الحرقة والحريق. والذوق: مماسة يحصل معها إدراك الطعم؛ وهو هنا توسع، والمراد به إدراكهم الألم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤ ﴾؟

ج: هذا – والله تعالى أعلم –: بيانٌ لما أعده الله ﷻ لأهل طاعته والإيمان به والعمل بما أمر واجتناب ما نهى عنه وجز فيقول تعالى: ﴿﴾ حدائق وبساتين ﴿﴾ يلبسون فيها حلية هي أساور من ذهب تلبس في أيديهم، ويحلون باللؤلؤ كذلك في الأيدي مع الأساور، وباللؤلؤ عمومًا في المواضع التي يُتزين فيها، أما عن الثياب المباشرة للأجسام فهي من حرير، ولكن شتان ما بين حرير الدنيا وحرير الآخرة، وهذا الحرير الذي كان محرمًا عليهم – على ذكورهم – في الدنيا أبيح لهم يوم القيامة. أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: وهداهم الله ﷻ إلى القول الطيب، وأطيب القول شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وهدوا إلى طريق الله ﷻ المحمود من أوليائه الصالحين وعباده المطيعين، وهذا الطريق هو طريق الإسلام.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأما الذين آمنوا بالله ورسوله فأطاعوهما بما أمرهم الله به من صالح الأعمال، فإن الله يُدخلهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، فيحليهم فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا.

وقوله: (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) يقول: ولبوسهم التي تلي أبشارهم فيها ثياب حرير. قوله: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) يقول تعالى ذكره: وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) قال: هدوا إلى الكلام الطيب: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله؛ قال الله: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر: ١٠].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) يقول جلّ ثناؤه: وهداهم ربهم في الدنيا إلى طريق الربّ الحميد، وطريقه: دينه دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرهم أن يسلكوه؛ والحميد: فعيل، صرّف من مفعول إليه، ومعناه: أنه محمود عند أوليائه من خلقه، ثم صرّف من محمود إلى حميد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذًا بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة -نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة- فقال: { إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } أي: تتخَرّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها

حيث شاءوا وأين شاءوا، { يُحَلَّوْنَ فِيهَا } من الحلية، { يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا } أي: في أيديهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه(١): "تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء".

وقوله: { وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } : في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: { عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا } [الإنسان: ٢١ ، ٢٢]، وفي الصحيح(٢): "لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة" (٣) .

قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير في الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: { وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ }

وقوله: { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ } كقوله { وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ } [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد: ٢٣ ، ٢٤]، وقوله: { لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا } [الواقعة: ٢٥ ، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا } [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يُرَوّعون به (٤) ويقرعون به، يقال لهم: { وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ }

---

(١) مسلم (٤٠/ ٢٥٠).

(٢) البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣)، وانظر كذلك البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (٢٠٦٩).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: { وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الصحيح: "إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَسَ".

وقد قال بعض المفسرين في قوله: { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ } أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، { وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى : {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} أي أرشدوا إلى ذلك. قال ابن عباس : "يريد لا إله إلا الله والحمد لله". وقيل : القرآن ، ثم قيل : هذا في الدنيا ، هدوا إلى الشهادة ، وقراءة القرآن. {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي إلى صراط الله. وصراط الله : دينه وهو الإسلام. وقيل : هدوا في الآخرة إلى الطيب من القول ، وهو الحمد لله ؛ لأنهم يقولون غدا الحمد لله الذي هدانا لهذا ، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ؛ فليس في الجنة لغو ولا كذب فما يقولونه فهو طيب القول. وقد هدوا في الجنة إلى صراط الله ، إذ ليس في الجنة شيء من مخالفة أمر الله. وقيل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من البشارات الحسنة. {وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} أي إلى طريق الجنة.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ
لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ
عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي
شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن
فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ
﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾
ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ
﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ
لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ
ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن
يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي
مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ﴾

[الحج: ٢٥-٣١]

س: وضِّح معنى ما يلي:

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ - سَوَآءً - ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ - يُرِدْ فِيهِ - بِإِلْحَادٍۭ - بَوَّأْنَا - وَٱلْقَآئِمِينَ - وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ - رِجَالًا - ضَامِرٍ - فَجٍّ عَمِيقٍ - أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ - بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ - ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ - لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ - وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ - وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ - يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ - فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ - قَوْلَ ٱلزُّورِ - حُنَفَآءَ لِلَّهِ - خَرَّ - سَحِيقٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	ويصرفون الناس عن طريق الله ﷻ وعن دينه (عن الإسلام).
﴿سَوَآءً﴾	يستوي
﴿ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾	المقيم فيه والوافد إليه
﴿يُرِدْ فِيهِ﴾	ينوي فيه (شرًّا)
﴿بِإِلْحَادٍۭ﴾	إلحادًا، يعني ميلًا عن الحق إلى الباطل وعن الطاعة إلى المعصية
﴿بَوَّأْنَا﴾	أنزلنا – هيئنا – وضحنا – أظهرنا
﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾	القائمين في صلاتهم
﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾	نادِ في الناس أن الله كتب عليكم الحج
﴿رِجَالًا﴾	على أرجلهم

﴿ضَامِرٍ﴾	الإبل المضمرة هي التي أُعدت للسفر فأُطعمت طعامًا معينًا وحبست لتقوى على السير، وقيل: المراد الإبل الهزيلة من طول السفر
﴿فَجٍّ عَمِيقٍ﴾	طريق بعيد
﴿أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾	المراد أيام العشر الأول من ذي الحجة، وقيل: هي يوم النحر وثلاثة أيام التشريق
﴿بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾	الأنعام الثمانية (الجمل والناقة والثور والبقرة والكبش والنعجة والجدي والعنز) (الأنعام التي لا تتكلم)
﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾	الفقير شديد الفقر، والمريض مرضًا مزمنًا
﴿لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾	ليتموا أعمال حجهم من حلق شعر وقص أظفار
﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾	ليفعلوا النذور التي أنذروها.
﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾	يطوفوا
﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾	الكعبة قديمة البناء إذ هي أول بيت وضع للناس
﴿يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾	لا يرتكب المحرمات التي حرمها الله ولا ينتهك حرمًا الأماكن التي حرمها الله
﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾	فابتعدوا عن الأصنام النجسة والنجسة عبادتها كذلك
﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾	القول الذي فيه ميل عن الحق، ومنه الشرك، وشهادات الزور على العباد مائلين عن الشرك إلى
﴿خَرَّ﴾	سقط

﴿سَحِيقٍ﴾	عميق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – إن الذين جحدوا وحدانية الله ﷻ وأنكروها وجعلوا له شريكًا في الملك، هؤلاء من شأنهم أنهم يصرفون الناس عن طريق الله ﷻ وطريق جنته ومرضاته ويمنعونهم من الدخول في دينه الذي شرعه لعباده، وكذا يصدون أهل الإيمان، يمنعونهم من دخول المسجد الحرام وإقامة دينهم فيه، ويمنعونهم من الحج والاعتمار كالذي صدر عام الحديبية، إذ منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من الدخول للاعتمار.

فقوله إن الذي كفروا خبرٌ وجوابه أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، كما في الآية الأخرى في شأن أهل الإيمان الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله فمن الأقوال فيها.

الذين آمنوا شأنهم وخبرهم أن قلوبهم تطمئن بذكر الله ﷻ.

فهذا وجهٌ من الوجه.

ووجهٌ آخر أن يقال: إن الذين كفروا وصدوا الناس عن الإيمان ومنعوهم من الدخول في الإسلام، وكذا منعوا الناس من بيت الله الحرام والحج والاعتمار والصلاة فيه، عليهم أن يعلموا أن من يُرد فيه إلحادًا (ميلًا عن الحق إلى الباطل وعن الطاعة إلى المعصية، وعن العدل والاتصاف إلى الظلم والعدوان وميلًا عن الإيمان إلى الشرك وغير ذلك من صور الإلحاد) من يرد هذه الإلحاد، وهو ظالم نذقه من عذاب أليم.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فحاصل معناه أن الله ﷻ أخبر بأنه جعل المسجد

الحرام للناس كلهم سواء أهل مكة والحرم وهم العاكفون فيها وسواء الوافدون على مكة.

فهؤلاء وأولئك سواء في المسجد الحرام يستوون فيه.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمن العلماء من قال إن الناس (المسلمين) كلهم سواء في مكة، ينزلون فيها حيث شاءوا ويتنقلون فيها حيث أرادوا ويعبدون ربهم ﷻ موحدين وكلهم سواء في المنازل، ومن العلماء من قال إن قوله: ﴿﴾ أي: أن أهله والوافدين عليه سواء في العبادة لا يُمنعون ولا يُصدون عنه، أما البيوت فيجوز تأجيرها.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمن العلماء من قال: إن الباء في قوله تعالى: ﴿﴾ كالباء في قوله تعالى: ﴿﴾ والمعنى تنبت الدهن فبنحو هذا قالوا في قوله تعالى: ﴿﴾ أي: إلحادًا بظلم.

ثم إن من العلماء من قال: إن إرادة السوء والعزم على فعله في الحرم يعذب صاحبه أشد من عزمه في أي مكان كان، وذلك لقوله تعالى: ﴿﴾ ثم تعددت أقوال العلماء في بيان صورة الإلحاد الذي عناه الله ﷻ بقوله: ﴿﴾ مع العلم بأن معنى الإلحاد الميل، فمن قائل من العلماء أن الإلحاد هو الشرك، ومنه الميل عن التوحيد.

فالمعنى ومن يرد فيه شركًا فعبد غير الله ﷻ، وهو لنفسه ظالم، قد بخسها حقها إذ أنزلها بشركه أسوأ المنازل.

ومن العلماء من قال إن الإلحاد استحلال فعل المحرمات في الحرم.

ومنهم من قال: إنه يدخل فيه احتكار الطعام وظلم العباد.

ومنهم من قال: إن الإلحاد فعل المنهي عنه عمومًا.

من الشرك والكفر والمعاصي وظلم العباد والبدع وغير ذلك.

وهذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين جحدوا توحيد الله، وكذّبوا رسله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ يقول: ويمنعون الناس عن دين الله أن يدخلوا فيه، وعن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس الذين آمنوا به كافة لم يخصص منها بعضا دون بعض؛﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ يقول: معتدل في الواجب عليه من تعظيم حرمة المسجد الحرام، وقضاء نسكه به، والنزول فيه حيث شاء العاكف فيه، وهو المقيم به؛ والباد: وهو المنتاب إليه من غيره.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: سواء العاكف فيه وهو المقيم فيه؛ والباد، في أنه ليس أحدهما بأحقّ بالمنزل فيه من الآخر.

وأورد بإسناد صحيح عن أبي حصين، قال: قلت لسعيد بن جُبير: أعتكف بمكة، قال: أنت عاكف. وقرأ:﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾.

وبإسناد صحيح قال ابن زيد، في قوله: ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ قال: العاكف فيه: المقيم بمكة؛ والباد: الذي يأتيه هم فيه سواء في البيوت.

وأورد بإسناد فيه مقال عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله:﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يقول تعالى ذكره: ومن يرد فيه إلحادا بظلم نذقه من عذاب أليم، وهو أن يميل في البيت الحرام

بظلم، وأدخلت الباء في قوله بإلحاد، والمعنى فيه ما قلت، كما أدخلت في قوله:(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ) والمعنى: تنبت الدهن.

واختلف أهل التأويل في معنى الظلم الذي من أراد الإلحاد به في المسجد الحرام، أذاقه الله من العذاب الأليم، فقال بعضهم: ذلك هو الشرك بالله وعبادة غيره به: أي بالبيت.

وأورد بإسناد فيه مقالٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿﴾ يقول: بشرك.

وبإسناد صحيح عن سليمان بن طرفان: ﴿﴾ قال: هو الشرك، ومن أشرك في بيت الله عذبه الله.

قال الطبري: وقال آخرون: هو استحلال الحرم فيه أو ركوبه[1].

وأورد بإسناد حسن عن مُرة عن عبد الله (وهو ابن مسعود) قال: ما من رجل يهم بسيئةٍ فتكتب عليه ولو أن رجلًا بعدن أبين هم أن يقتل رجلًا بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم[2].

ثم قال الطبري:

وقال آخرون: بل معنى ذلك الظلم: استحلال الحرم متعمدا.

وقال آخرون: بل ذلك احتكار الطعام بمكة.

وقال آخرون: بل ذلك كل ما كان منهيا عنه من الفعل، حتى قول القائل: لا والله، وبلى والله.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو، قال: كان له فسطاطان: أحدهما في الحلّ، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحلّ،

---

(١) معنى ركوبه أي: ركوب المعاصي والمحرمات، يعني: فعلها.

(٢) (عدن أبين) بلدة معروفة.

فسئل عن ذلك، فقال: كنا نحدّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله.

ثم قال أبو جعفر[1]: وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن ابن مسعود وابن عباس، من أنه معنيّ بالظلم في هذا الموضع كلّ معصية لله، وذلك أن الله عم بقوله: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) ولم يخصص به ظلم دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم، فيعصي الله فيه، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: { وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الأنفال: ٣٤].

وفي هذه الآية دليل [على] أنها مدنية، كما قال في سورة "البقرة": { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ } [البقرة: ٢١٧]، وقال: هاهنا: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد: ٢٨] أي:

(١) وهو الطبري.

ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: { الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، { سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: { سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام.

وقال مجاهد: { سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } : أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعض وجوه الاختلاف في ذلك فقال:

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخِيف، وأحمد بن حنبل حاضر (٥) أيضًا، فذهب الشافعي، رحمه الله (٦) إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهري، عن علي بن الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك (٧) بمكة؟ فقال: «**وهل ترك لنا عَقيل من رباع**». ثم قال: «**لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر**»[1] . وهذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين (٨) [وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من

(١) البخاري (٤٢٨٢، ٤٢٨٣).

السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء.

وأورد بعض الآثار والأحاديث فيها بعض المقال ثم قال:

"وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: { تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ } [المؤمنون: ٢٠] أي: تُنْبِتُ الدهن، وكذا قوله: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ (٩) } تقديره إلحادًا، وكما قال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرْماحُنا ... بين المَرَاجِل، والصّريحَ الأجرد

وقال الآخر:

بوَادٍ يَمانٍ يُنْبِتُ الشَّثّ صَدْرُهُ ... وَأسْفَلُه بالمَرْخِ والشَّبَهَان

والأجود أنه ضمن الفعل هاهنا معنى "يَهُمّ"، ولهذا (١) عداه بالباء، فقال: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ } أي: يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار.

وقوله: { بِظُلْمٍ } أي: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادي فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه.

ثم قال ابن كثير بعد إيراد جملة من الآثار:

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم

من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل { تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ } [الفيل: ٤ ، ٥]، أي: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم**» الحديث[1].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى : {وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} قيل : إنه المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن ؛ لأنه لم يذكر غيره. وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه عام الحديبية ، فنزل خارجا عنه ؛ قال الله تعالى : {وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الفتح : ٢٥] وقال : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الإسراء : ١]. وهذا صحيح ، لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك.

قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ} أي للصلاة والطواف والعبادة ؛ وهو كقوله تعالى : {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ} [آل عمران : ٩٦]. {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} العاكف : المقيم الملازم. والبادي : أهل البادية ومن يقدم عليهم. يقول : سواء في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه الحاضر والذي يأتيه من البلاد ؛ فليس أهل مكة أحق من النازح إليه. وقيل : إن المساواة إنما هي في دوره ومنازله ، ليس المقيم فيها أولى من الطارئ عليها. وهذا على أن المسجد الحرام الحرم كله ؛ وهذا قول مجاهد ومالك ؛ رواه عنه ابن القاسم.

---

(١) انظر البخاري حديث (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨١).

وروي عن عمر[١] وابن عباس وجماعة "إلى أن القادم له النزول حيث وجد، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أو أبى". وقال ذلك سفيان الثوري وغيره، وكذلك كان الأمر في الصدر الأول، كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة؛ فاتخذ رجل بابا فأنكر عليه عمر وقال: أتغلق بابا في وجه حاج بيت الله؟ فقال: إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة، فتركه فاتخذ الناس الأبواب. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضا أنه كان يأمر في الموسم بقلع أبواب دور مكة، حتى يدخلها الذي يقدم فينزل حيث شاء، وكانت الفساطيط تضرب في الدور. وروي عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستبداد؛ وهذا هو العمل اليوم. وقال بهذا جمهور من الأمة.

{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ} شرط، وجوابه {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}. والإلحاد في اللغة: الميل؛ إلا أن الله تعالى بين أن الميل بالظلم هو المراد.

ثم قال: وهذا الإلحاد والظلم يجمع المعاصي من الكفر إلى الصغائر؛ فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه. ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة. هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم. وقد ذكرناه آنفا.

❁ ❁ ❁

س: هل السيئات تضاعف بمكة؟

ج: أما كخبرٍ صريحٍ عن رسول الله ﷺ فلا أعلم شيئًا ثابتًا، إما مستنبطًا فهنالك أدلة على أن جزاء السيئات بمكة أعظم من جزائها بغيرها.

(١) والسند إلى عمر فيه كلام.

ومن ذلك قوله تعالى في شأن الحرم: ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه أمِّنوا أيها الناس من دخل الحرم، ومن مفهومه أن من ظلم انتهك حرمة النهي أيضًا.

وكذلك قوله ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذه...**»[1].

إلى غير ذلك من العمومات الواردة في هذا الصدد، وقد تقدمت بعض الآثار في ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، فتكون المعصية معصيتين، إحداهما: بنفس المخالفة، والثانية: بإسقاط حُرمة البلد الحرام؛ وهكذا الأشهر الحُرُم سواء.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – واذكر يا رسول الله إذ أنزلنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمكة عند المكان الذي فيه البيت الحرام، وأرشدناه إلى مكان البيت وبيَّناه له وأذنّ له في بنائه، وعهدنا إليه عهدًا أن يبني البيت على اسم الله وحده، وكي يُعبد الله ﷻ وحده، وحذرنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وغيره له تبع من الشرك وأمرناه أن يطهر هذا البيت، يطهره من الشرك والبدع والخرافات والمحدثات والقاذورات إن اعتراه شيء من ذلك.

---

(١) انظر البخاري حديث (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩).

طهراه ونظفاه للطائفين الذين يريدون الطواف بالكعبة إذ هي البيت كما قال تعالى: ﴿﴾، وكذا طهراه لمن يريد الصلاة فيه بما فيها من ركوع وسجود وقيام

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مُعْلِمَه عظيم ما ركب من قومه قريش خاصة دون غيرهم من سائر خلقه بعبادتهم في حرمه، والبيت الذي أمر إبراهيم خليله صلى الله عليه وسلم ببنائه وتطهيره من الآفات والرِّيَب والشرك: واذكر يا محمد كيف ابتدأنا هذا البيت الذي يعبد قومك فيه غيري، إذ بوأنا لخليلنا إبراهيم، يعني بقوله: بوأنا: وطأنا له مكان البيت.

وأورد بإسناد حسن عن السديّ، قال: لما عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين، انطلق إبراهيم حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخذا المعاول، لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحا يقال لها ريح الخَجُوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأوّل، واتبعاها بالمعاول يحفران، حتى وضعا الأساس، فذلك حين يقول: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ).

وهذا ضعيف.

الثالث: أنهم كانوا يفعلون المنكرات عمومًا في مجالسهم بلا حياءٍ ولا خجل ولا وجل، والتي منها أنهم كانوايتظارطون في المجالس ويضحكون.

وأورد القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوالًا عن بعض أهل العلم لا أعلم لها مستندًا من

كتاب الله ﷻ ولا من سنة رسول الله ﷺ إلا ما يتعلق بفعلهم الفاحشة.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال مكحول[(١)]: في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار وتنقيض الأصابع والعمامة التي تلف حول الرأس والتشابك ورمي الجلاهق والصفير والخذف واللوطية. وعن ابن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ويشتم بعضهم بعضًا ويتضارطون في مجالسهم ويخذفون ويلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات ويتناقرون بالديكة ويتناطحون بالكباش ويطرفون أصابعهم بالحناء وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ويضربون المكوس على كل عابر ومع هذا كله كانوا يشركون بالله وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ج: هذا استفهام استنكار وتوبيخ من لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه يقول لهم: أئنكم لتفعلون الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس، تلك الفعلة البشعة المحرمة حيث يأتي بعضكم بعضًا، فعلًا للفاحشة وممارسةً لها، وتؤذون المارة والمسافرين بكل أنواع الأذى فتسلبونهم أموالهم وترمونهم بالحجارة وتفعلون بهم كرهًا وظُلمًا تلك الفعلة الخبيثة ولا تستحيون في أماكن تجمعكم

(١) ولم أقف على سند صحيح لقول مكحول وابن عباس.

من ارتكاب المنكرات مجاهرين بها غير مسرين ولا مستترين، بل تفعلون ذلك جهارًا وأمام بعضكم البعض تفعلون كل أنواع المنكرات فما كان رد قومه عليه إلا أن استبعدوا وقوع العذاب عليهم ونزوله بهم فقالوا: على وجه التحدي والعناد ائتنا بعذاب الله الذي تعدنا به إن كنت صادقًا في دعواك أننا سنعذب.

وبنحو هذا قال أهل التأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل لوط لقومه ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها القوم، ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ في أدبارهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ يقول: وتقطعون المسافرين عليكم بفعلكم الخبيث، وذلك أنهم فيما ذُكر عَنْهم كانوا يفعلون ذلك بمن مرّ عليهم من المسافرين، من ورد بلادهم من الغرباء.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قال: السبيل: الطريق. المسافر إذا مرّ بهم، وهو ابن السبيل قطعوا به، وعملوا به ذلك العمل الخبيث.

وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ اختلف أهل التأويل في المنكر الذي عناه الله، الذي كان هؤلاء القوم يأتونه في ناديهم، فقال بعضهم: كان ذلك أنهم كانوا يتضارطُون في مجالسهم.

وقال آخرون: بل كان ذلك أنهم كانوا يحذفون من مر بهم.

وأورد حديثًا ضعيفًا في ذلك سبقت الإشارة إليه وقال بعضهم: بل كان ذلك إتيانهم الفاحشة في مجالسهم أي أن بعضهم يجامع بعضًا في المجالس.

وأورد الطبري عدة آثار بذلك تصح بمجموعها عن مجاهد وقتادة وابن

زيد وغيرهم.

ثم قال الطبري:

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فلم يكن جواب قوم لوط إذ نهاهم عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التي حرمها الله إلا قيلهم: ائتنا بعذاب الله الذي تعدنا، إن كنت من الصادقين فيما تقول، والمنجزين لما تعد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم. وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذّبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملإ قاله مجاهد. ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون؛ قالته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والقاسم. ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شرًّا من ذلك.

وقال:

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠﴾؟

ج: هذا من لوط عليه السلام دعاءٌ على قومه بعد أن أصروا على جرائمهم وأصروا على كفرهم وأعلنوا عن تحديهم له وتكذيبهم لما يقوله، فقال: ﴿رَبِّ﴾ أي: يا رب انصرني على القوم المفسدين في الأرض الذي يقطعون السبيل ويأتون الذكران من العالمين فضلًا عن شركهم بالله عز وجل، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١﴾؟

ج: المعنى - والله أعلم -: ولما جاءت ملائكتنا إبراهيم عليه السلام في صورة البشر تبشره بأنه سيرزق بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب أي أن إسحاق سيرزق بيعقوب هو الآخر عليه السلام قالوا له إنا أرسلنا إلى قوم لوط عليه السلام لإهلاكهم ولتدمير قريتهم عليهم، فإن أهلها كانوا ظالمين لأنفسهم باخسين لها حقها لشركهم وفعلهم القبائح.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ من الله بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ يقول: قالت رسل الله لإبراهيم: إنا مهلكو أهل هذه القرية، قرية سَدُوم، وهي قرية لوط ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ يقول: إن أهلها كانوا ظالمي أنفسهم؛ بمعصيتهم الله، وتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم –: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أخبرته الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنهم مهلكوا أهل قرية لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: إن فيها لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مؤمن فأجابته الملائكة بقولهم نحن أعلم منك بمن في هذه القرية من المؤمنين وغير المؤمنين، وسننجي لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وننجي أهله معه إلا امرأته فلم تكن بمؤمنه، وقد قضى الله أن تكون من الباقين في العذاب، من الهالكين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم للرسل من الملائكة إذ قالوا له: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ فلم يستثنوا منهم أحدا، إذ وصفوهم بالظلم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾، وليس من الظالمين، بل هو من رسل الله، وأهل الإيمان به، والطاعة له، فقالت الرسل له: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾ من الظالمين الكافرين بالله منك، وإن لوطًا ليس منهم، بل هو كما قلت من أولياء الله، ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ من الهلاك الذي هو نازل بأهل قريته ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الذين أبقتهم الدهور والأيام، وتطاولت أعمارهم وحياتهم، وإنها هالكة من بين أهل لوط مع قومها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما استنصر لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ الله عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام، في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نكِرَهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة –وكانت حاضرة –فتعجبت من

ذلك، كما تقدم بيانه في سورتي «هود» و«الحجر». فلما جاءت إبراهيم البشرى، وأخبروه بأنهم أُرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ج: ولما أن جاءت ملائكتنا الذين أرسلناهم إلى قوم لوطٍ لتدميرهم بإهلاكهم ساءه مجيؤهم وتضايق بسببهم خوفًا عليهم من قومه الأشرار أن يأتوا إليهم ويفعلوا بهم الفاحشة، فطمأنوه وقالوا له: لا تخف علينا يا نبي الله من قومك الأشرار ولا تحزن على ما أصابك من هموم وغموم، ولا تحزن مما يحيط بك، ولا تخف فإنا منجوك وأهلك المؤمنين بك، إلا امرأتك فقد كانت خائنة في الدين، وقد كتب الله أن تكون من الهالكين الباقين مع الذين سيعذبون ويهلكون، وفي الآيات الأُخر أن الله ﷻ أوحى إليه أن يخرج بعباد الله المؤمنين وكذا بأهله المؤمنين به، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] وأخبرته الملائكة أنهم سينزلون على أهل هذه القرية

عذابًا من السماء بسبب جرمهم وفسقهم، وإيضاحه في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: ٨٢] فأهلكها الله ﷻ وتركها آية وعبرةً وعظةً لقوم يعقلون سنة الله في الخلق ويعقلون كيف يُعذب الظالمون، ويُنجي الله المؤمنين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ من الملائكة ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ يقول: ساءته الملائكة بمجيئهم إليه، وذلك أنهم تَضَيفوه، فساءوه بذلك، فقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾: فُعِلَ بهم مَنْ ساءه بذلك.

وذُكر عن قتادة أنه كان يقول: ساء ظنه بقومه، وضاق بضيفه ذَرْعا.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ قال: بالضيافة مخافة عليهم مما يعلم من شرّ قومه.

قال الطبري: وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ يقول تعالى ذكره: قالت الرسل للوط: لا تخف علينا أن يصل إلينا قومك، ولا تحزن مما أخبرناك من أنَّا مهلكوهم، وذلك أن الرسل قالت له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ من العذاب الذي هو نازل بقومك ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ يقول: ومنجو أهلك معك ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ فإنها هالكة فيمن يهلك من قومها، كانت من الباقين الذين طالت أعمارهم.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل الرسل للوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ يا لُوط ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ سَدُوم ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني عذابًا.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ يقول: بما كانوا يأتون من معصية الله، ويركبون من الفاحشة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد أبقينا من فَعْلتنا التي فَعَلْنا بهم آية، يقول: عبرة بينة وعظة واعظة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حُجَجه، ويتفكرون في مواعظه، وتلك الآية البينة هي عندي عُفُوُّ آثارهم، ودروس معالمهم.

وأورد بسندٍ حسن عن قَتادة: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال: هي الحجارة التي أُمطرت عليهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما رآهم كذلك، ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: اهتمَّ بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وذلك أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابًا يوم المعاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً﴾ أي: واضحة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[الصافات: ١٣٧، ١٣٨]

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ
ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ
فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٣٧) وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ (٣٨) وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ
وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ
سَٰبِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم
مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٤٠)﴾

[العنكبوت: ٣٦-٤٠].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ - وَلَا تَعۡثَوۡاْ - ٱلرَّجۡفَةُ - جَٰثِمِينَ - وَزَيَّنَ - مُسۡتَبۡصِرِينَ - سَٰبِقِينَ - حَاصِبٗا - ٱلصَّيۡحَةُ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾	اطلبوا ثواب الله في اليوم الآخر بأعمالكم الصالحة
﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾	لا تكثروا من المعاصي – لا تكفروا
﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾	الزلزلة العظيمة
﴿جَٰثِمِينَ﴾	موتى بعضهم فوق بعض
﴿وَزَيَّنَ﴾	حسَّن
﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾	مستبصرين في ضلالتهم مُعجبين بها عالمين بطريق الحق، ولكنهم سلكوا غيره
﴿سَٰبِقِينَ﴾	فائتين من عذابنا – هاربين منا
﴿حَاصِبٗا﴾	الحجارة الشديدة الصغيرة القاسية التي تحملها الرياح
﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾	الصوت العظيم الذي أهلكهم

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – ولقد أرسلنا إلى أهل مدين نبينا شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، منهم من قبيلتهم وبلادهم فدعاهم إلى توحيد الله ﷻ وعدم الإشراك به فقال لهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده لا شريك له، اخضعوا له وأطيعوه ولا تجعلوا له شريكًا، واطلبوا بذلك ثواب الله في اليوم الآخر، وأقلعوا عن هذا الفساد الكثير الذي أفسدتموه في الأرض، لا تسعوا في الأرض بالفساد، وكان من فسادهم تطفيف المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم، فما كان منهم إذ دعاهم نبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ذلك إلا أن كذَّبوه وخالفوه وعاندوه، فجاءتهم كغيرهم من المكذبين العقوبة، شديدة ومؤلمة فأخذتهم الرجفة، وهي الزلزلة العظيمة من تحت أرجلهم وكذا كان مما أصابهم عذاب يوم الظُّلة، إذ اعتراهم حرٌّ شديدٌ جدًّا أخرجهم من بيوتهم فرأوا سحابة سوداء فذهبوا يستظلون بها فتأججت عليهم نارًا، فنارٌ من فوقهم ورجفة من تحتهم، وصيحة ألمت بهم، فأصبحوا ميتين مُلقى بعضهم على بعض.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأرسلت إلى مَدْين أخاهم شعيبًا، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده، وذِلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالعبادة ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ يقول: وارجوا بعبادتكم إياي جزاءَ اليوم الآخر، وذلك يوم القيامة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ يقول: ولا تكثِروا في الأرض معصية الله، ولا تقيموا عليها، ولكن توبوا إلى الله منها وأنيبوا.

وقد كان بعض أهل العلم بكلام العرب يتأوَّل قوله: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ بمعنى: واخشَوا اليوم الآخر، وكان غيره من أهل العلم بالعربية يُنكر ذلك ويقول: لم نجد الرجاء بمعنى الخوف في كلام العرب إلا إذا قارنه الجَحْد.

يقول تعالى ذكره: فكذَّب أهل مَدينَ شعيبًا فيما أتاهم به عن الله من الرسالة، فأخذتهم رَجْفة العَذاب ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ جُثومًا، بعضُهم على بعض مَوْتَى.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾: أي ميتين.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مَدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ [الممتحنة: ٦].

ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سور «الأعراف، وهود، والشعراء».

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين وقد تقدم ذكرهم وفسادهم في (الأعراف) و(هود) ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ وقال يونس

النحوي: أي: اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تكفروا فإنه أصل كل فساد والعثو والعثي أشد الفساد عثى يعثى وعثا يعثو بمعنى واحد وقد تقدم وقيل: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: صدقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: واذكر قوم عاد وقوم ثمود، وما حلَّ بهم من العقاب والنكال لتكذيبهم المرسلين ولشركهم بالله ﷻ وعنادهم وظلمهم وبغيهم، لقد حلَّ بهم أليم العقاب، فانظروا إلى مساكنهم يتبين لكم ويظهر كيف كان عقابنا لهم، فاحذروا؛ فقد زين لهم الشيطان أعمالهم حسنها لهم وجمَّلها في أعينهم، فاحذروا تزيينه لكم، لقد حسنها لهم فصرفهم عن طريق الحق إلى طريق الباطل، وقد كانوا في دنياهم مستبصرين.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أنهم مستبصرين في ضلالتهم وكفرهم ومعجبين بذلك.

وقال آخرون من أهل العلم: كانوا مستبصرين عالمين الحق رأوه ولكنهم سلكوا سبيلًا آخر غير ذلك السبيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: واذكروا أيها القوم عادًا وثمود، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

﴿مَّسَـٰكِنِهِمْ﴾ خرابها وخلاؤُها منهم بوقائعنا بهم، وحلول سَطْوتنا بجميعهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ يقول: وحسَّن لهم الشيطان كفرهم بالله، وتكذيبَهم رسله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: فردَّهم بتزيينه لهم، ما زيَّن لهم من الكفر عن سبيل الله، التي هي الإيمان به ورسله، وما جاءوهم به من عند ربهم ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ يقول: وكانوا مستبصرين في ضلالتهم، مُعْجبين بها، يحسبون أنهم على هدى وصواب، وهم على الضلال.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في ضلالتهم مُعْجَبين بها.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجع إلى أول السورة أي: ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادًا وثمود قال: وأحب إلى أن يكون معطوفًا على ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وأخذت عادًا وثمود وزعم الزجاج: أن التقدير وأهلكنا عادًا وثمود وقيل: المعنى واذكر عادًا إذ أرسلنا إليهم هودًا فكذبوه فأهلكناهم وثمود أيضًا أرسلنا إليهم صالحًا فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عادًا بالريح العقيم ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا معشر الكفار ﴿مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ﴾ بالحجر والأحقاف آيات في إهلاكهم فحذف فاعل التبين ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما: وكانوا مستبصرين في الضلالة قاله مجاهد. والثاني: كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين وهذا القول أشبه لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة. قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم

العذاب.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – واذكر قارون الطاغي الباغي الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، اذكره واذكر ما حلَّ به، وقد تقدم أمره في سورة القصص، وكذا فاذكر فرعون الذي عتا عتوًّا كبيرًا، واستكبر في نفسه قائلًا: أنا ربكم الأعلى، وقائلًا: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، واذكر وزيره وزير السوء ذلكم الوزير المبطل، اذكر هؤلاء وما حلَّ بهم لقد جاءهم رسول الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالآيات البينات والحجج الواضحات الدالة على صدقه فتعالوا عن ذلك واستكبروا وأبوا أشد الإباء أن يؤمنوا، ولكنهم ما فاتونا ولا أعجزونا ولا هربوا منا فإنا كنا عليهم مقتدرون.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد، قارون وفرعون وهامان، ولقد جاء جميعهم موسى بالبيِّنات، يعني: بالواضحات من الآيات، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن التصديق بالبينات من الآيات، وعن اتباع موسى صلوات الله عليه ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وما كانوا سابقينا بأنفسهم، فيفوتونا، بل كنا مقتدرين عليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ قال الكسائي: إن شئت كان

محمولًا على عاد وكان فيه ما فيه وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وصد قارون وفرعون وهامان وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن الحق وعن عبادة الله ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين وقيل: سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن كل هذه الأمم المكذبة التي قدمنا ذكرها، قد عاقبناها وأنزلنا عليها أليم العقاب بسبب ذنوبها فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا وهي الحجارة الشديدة القاسية، وأحيانًا تحملها الرياح، وهؤلاء الذين أرسل عليهم الحاصب قوم لوط وقوم عاد، فقوم لوط قال تعالى في شأنهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] وقوم عاد، قال تعالى في شأنهم: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] قال بعض العلماء: بما تحمله الريح من الحصباء، أي: حصباء الأرض حملتها الريح وعذبوا بها.

ومنهم من أخذته الصيحة، وهم ثمود، وأصحاب مدين، ومنهم من خسفنا به الأرض وهو قارون، ومنهم من أغرقنا وهم قوم نوح وقوم فرعون وهامان، ولم يكن الله ﷻ بظالمٍ لهم إذ أحلَّ بهم ما أحلَّ ولكنهم هم الذين بخسوا أنفسهم حقوقها ولم يجلبوا لها ما تستحق من أمان، وأمانها كان

بتوحيدهم لله ﷻ وطاعة رسله والاستقامة على أمره، فلم يفعلوا ذلك بل أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وعاندوا أشد العناد وكذبوا المرسلين وظلموا العباد فحلَّ بهم من النكد والبلاء ما حلَّ.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأخذنا جميع هذه الأمم التي ذكرناها لك يا محمد بعذابنا ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لُوط الذين أمطر الله عليهم حجارة من سجِّيل مَنضُود، والعرب تسمي الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد: حاصبًا.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوط.

وأورد قولين في الذين أخذتهم الصيحة، قوم ثمود وقوم شعيب، وأورد عن قتادة بسندٍ حسن أنه قال: قوم شعيب لكن الطبري عقب بقوله:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله قد أخبر عن ثمود وقوم شعيب من أهل مدين أنه أهلكهم بالصيحة في كتابه في غير هذا الموضع، ثم قال جلَّ ثناؤه لنبيه ﷺ: فمن الأمم التي أهلكناهم من أرسلنا عليهم حاصبًا، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، فلم يخصص الخبر بذلك عن بعض مَنْ أخذته الصيحة من الأمم دون بعض، وكلا الأمتين أعني ثمود ومدين قد أخذتهم الصيحة.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني بذلك قارون.

وأورد وجهين في الذين أغرقهم الله ﷻ، وهم قوم نوح وفرعون وهامان.

وقال:

والصواب من القول في ذلك، أن يُقال: عُني به قوم نوح وفرعونُ وقومه؛ لأن الله لم يخصص بذلك إحدى الأمتين دون الأخرى، وقد كان أهلكهما قبل نزول هذا الخبر عنهما، فهما مَعْنيتان به.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ يقول تعالى ذكره: ولم يكن الله ليهلك هؤلاء الأمم الذين أهلكهم، بذنوب غيرهم، فيظلمَهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق، بل إنما أهلكهم بذنوبهم، وكفرهم بربهم، وجحودهم نعمه عليهم، مع تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بتصرُّفهم في نعم ربهم، وتقلبهم في آلائه وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ قال الكسائي: ﴿فَكُلًّا﴾ منصوب بـ﴿أَخَذۡنَا﴾ أي: أخذنا كلًّا بذنبه ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ يعني: قوم لوط والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار وتستعمل في كل عذاب ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ يعني: ثمودا وأهل مدين ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يعني: قارون ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾ قوم نوح وقوم فرعون ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت ببلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدًا، وتمر

عليها كثيرًا. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جدًّا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنَان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنًا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحًا ومَنْ آمن معه، وتوعَّدوهُم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر، وهو أنه

ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهتُ على هذا لأنه قد روي أن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: قوم لوط. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾، قال: قوم نوح.

وهذا منقطع عن ابن عباس؛ فإن ابن جُرَيْج لم يدركه. ثم قد ذكر في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادة: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قال: قوم لوط، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، قوم شعيب. وهذا بعيد أيضًا لما تقدم، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ
يَعۡلَمُونَ ٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا
ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ
ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا
تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾

[العنكبوت: ٤١-٤٥]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَوْلِيَآءَ -أَوْهَنَ -نَضْرِبُهَا -ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَوْلِيَآءَ﴾	أنصارًا
﴿أَوْهَنَ﴾	أضعف
﴿نَضْرِبُهَا﴾	نُبيِّنها
﴿ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾	العلماء

❁ ❁ ❁

ضعف المستند الذي يستند إليه أهل الشرك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ج: هذا مثل ضُرب لبيان بطلان ما عليه أهل الشرك من اعتقادهم بأن آلهتهم تنصرهم من دون الله أو تغني عنهم من عذاب الله من شيء، وحاصل المعنى -والله أعلم- مثل الذين اتخذوا أصنامًا وأوثانًا يعبدونها مع الله، ويجعلونها شريكة الله، وكذا يعبدونها ويتركون عبادة الله، يطلبون بذلك نصرتها لهم عند الشدائد كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتًا يحميها ويُكنُّها فلما حلَّ بالعنكبوت ما حلَّ لم ينفعها بيتها ولم يحفظها من المطر ولا الريح، وذلك لأنه بيتٌ ضعيف فلم يغن عن العنكبوت شيء، وكذا الآلهة التي هي

الأوثان والأصنام، وكل معبود عبد من دون الله لا يملك لعابديه شيئًا ولا يغني عنه من عذاب الله من شيء، فالأصنام والأوثان والآلهة المعبودة من دون الله، شبِّهت ببيت العنكبوت في كونها لا تغني عن عابديها شيئًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لو كان هؤلاء يعلمون علمًا ينتفعون به، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نَصْرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها، كيما يُكِنها، فلم يغن عنها شيئًا عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحلّ بهم سخطه أولياؤُهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحلَّ الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم.

وأورد بإسناد حسن عن قَتادة: قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمشرك مَثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد: في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله، لا يغني أولياؤهم عنهم شيئًا، كما لا يغني العنكبوت بيتها هذا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ يقول: إن أضعف البيوت ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله

أولياء، يعلمون أن أولياءهم الذين اتخذوهم من دون الله في قلة غنائهم عنهم، كغناء بيت العنكبوت عنها، ولكنهم يجهلون ذلك، فيحسبون أنهم ينفعونهم ويقرِّبونهم إلى الله زلفى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمَنْ يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو عَلموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿لَوۡ﴾ متعلقة ببيت العنكبوت أي: لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئًا وأن هذا مثلهم لما عبدوها؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (التفسير القيم):

قول الله تعالى ذكره:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء هم أضعف منهم. فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا. وهو أوهن البيوت وأضعفها.

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء. فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥] وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١] فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليًّا يتعزز به، ويتكبر به، ويستقر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده.

وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتًا، فلو علموا ذلك ما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزًّا وقدرة. فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ قراءتان وضحهما.

ج: القراءة الأولى بالياء ﴿يَدۡعُونَ﴾، والثانية بالتاء ﴿تدعون﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، إن الله يعلم الأشياء التي يعبدونها من دون الله، أي شيء كان، وأنه -أي: هذا الشيء المعبود- ضعيف لا يملك لنفسه فضلًا عن غيره شيئًا، والله هو العزيز الغالب الذي ينفذ حكمه ومراده في خلقه الحكيم فيما يشرع.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف القرّاء في قراءة قوله: (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَدْعُونَ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار (تَدْعُونَ) بالتاء بمعنى الخطاب لمشركي قريش ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أيها الناس، (يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ) إِلَيْهِ (مِن دُونِهِ مِن شَيءٍ). وقرأ ذلك أبو عمرو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ﴾ بالياء بمعنى الخبر عن الأمم، إن الله يعلم ما يدعو هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا، قراءة من قرأ بالتاء؛ لأن ذلك لو كان خبرًا عن الأمم الذين ذكر الله أنه أهلكهم، لكان الكلام: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما كانوا يدعون، لأن القوم في حال نزول هذا الخبر على نبي الله لم يكونوا موجودين، إذ كانوا قد هلكوا فبادوا، وإنما يقال: (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَدْعُونَ) إذا أريد به الخبر عن موجودين، لا عمن قد هلك.

فتأويل الكلام إذ كان الأمر كما وصفنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أيها القوم، حال ما تعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾، وأن ذلك لا ينفعكم ولا يضرُّكم، إن أراد الله

بكم سوءًا، ولا يغني عنكم شيئًا، وإن مثله في قلة غنائه عنكم، مَثَلُ بيت العنكبوت في غَنائه عنها.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يقول: والله العزيز في انتقامه ممن كفر به، وأشرك في عبادته معه غيره فاتقوا أيها المشركون به، عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم، كما نزل بالأمم الذين قصَّ الله قصصهم في هذه السورة عليكم، فإنه إن نزل بكم عقابُه لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه أولياء، كما لم يُغْنِ عنهم من قبلكم أولياؤهم الذين اتخذوهم من دونه، الحكيم في تدبيره خلقه فمُهلك من استوجب الهلاك في الحال التي هلاكه صلاح، والمؤخر من أخَّر هلاكه من كفرة خلقه به إلى الحين الذي في هلاكه الصلاح.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى متوعدًا لِمَنْ عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى الذي و﴿مِن﴾ للتبعيض ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى والمعنى: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾؟

ج: المعنى، وهذه الأمثال التي نسوقها في الكتاب العزيز نبينها ونظهرها ونمثلها ونشبهها ونحتج بها ﴿لِلنَّاسِ﴾، وما يفهمها وما يتدبرها وما يعلم معناها إلا الراسخون في العلم، العالمون بالله وآياته.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يقول تعالى ذكره: وهذه الأمثال، وهي الأشباه والنظائر ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يقول: نمثلها ونشبهها ونحتجُّ بها للناس، كما قال الأعشى:

هَلْ تَذْكُرُ العَهْدَ مِنْ تَنَمَّصَ إذْ تَضْرِبُ لي قاعِدًا بِها مَثَلا

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وما يعقل أنه أصيب بهذه الأمثال التي نضربها للناس منهم الصواب والحقّ فيما ضربت له مثلًا ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ بالله وآياته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا﴾ أي: هذا المثل وغيره مما ذكر في (البقرة) و(الحج) وغيرهما ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبينها ﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي: يفهمها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: العالمون بالله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه.

❁ ❁ ❁

إيضاح معنى قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن الله ﷻ خلق السموات والأرض لإقامة الحق والعدل إن في ذلك لدلالة على وحدانيته وقدرته، لكن لا يتفطن لذلك إلا أهل الإيمان ولا يستدل بذلك على وحدانيته إلا هؤلاء المؤمنون.

وإن كان من العلماء قد أورد معاني أُخر لكلمة الحق:

منها: أنه سبحانه الذي خلقها وحده لا شريك له لم يشاركه أحدٌ في خلقها فيكون المعنى حقًّا إن الله ﷻ هو الذي خلق السموات والأرض وحده لا شريك له.

الثاني: أنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض لإقامة الحق وتكون الباء في قوله بمعنى اللام فحروف الجر تتناوب ويأتي بعضها مكان بعض كقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي: فاسأل عنه خبيرًا، وكقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل.

فيكون المعنى خلق الله السموات والأرض لإقامة الحق، ومنه الاستدلال بخلقها على توحيده ومنه لتجزى كل نفس بما كسبت، فلم يخلقها عبثًا ولا لهوًا إنما خلقها لإقامة الحق والعدل.

الثالث: أنه سبحانه خلق السموات والأرض بكلمته التي هي الحق وبقدرته التي هي حق.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: خلق الله يا محمد، السموات والأرض وحده منفردًا بخلقها، لا يشركه في خلقها شريك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول: إن في خلقه ذلك لحجة لمن صدق بالحجج إذا عاينها، والآيات إذا رآها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة: أنه خلق السموات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب، ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والقسط وقيل: بكلامه وقدرته وذلك الحق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: علامة ودلالة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

ج: أما معنى قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

ففيه وجهان:

أحدهما: اقرأ القرآن.

ثانيهما: اتبع القرآن.

* أما قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ حافظ عليها وأدّها على وجهها

الصحيح بفرائضها وشرائطها وواجباتها وفي أوقاتها.

* أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فحاصل معناه والله أعلم: إن الصلاة بالاستمرار عليها والمداومة عليها تنهى صاحبها عن الفحشاء، وهي كل ما فحش خطؤه من القول والعمل. والمنكر: كل ما يخالف أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ وتستنكره.

فحاصل الأمر أن الصلاة بما فيها من قرآن يتلى، وبما فيها من توقيرٍ لله ﷻ وتنزيهه وبما فيها من مراقبة الله ﷻ تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر وهذا في غالب الأحوال.

فغالب الحال أن المصلين أبعد الناس عن الفحشاء والمنكر، وإن كان قد يصدر من بعضهم ما يخلُّ بذلك لكن الأمر أغلبي، والله أعلم.

والوجه الثاني للعلماء في كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن المصلي أثناء صلاته يكون بعيدًا عن الفحشاء والمنكر.

ووجه ثالث: أن الصلاة تُغسل بها ذنوب العبد وتزول فلا يتراكم ذنبٌ فوق ذنب بما يؤول إلى ارتكاب الفحشاء والمنكر، والله أعلم.

أما قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فحاصل معناه: أن العبد إذا صلى فذكر الله ﷻ في صلاته، ذكره الله ذكرًا أعظم وأكبر من ذِكره لله في الصلاة فذكر الله لك يا عبد الله إذا أنت ذكرته في صلاتك أعظم من ذكرك له.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ فحاصل معناه: أن الله يراقبك يا عبد الله فأتقن صلاتك واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، وأكثر من ذكر الله فربك مطلع على كل هذا، ومجازيك به، والله أعلم، وبنحو ما ذكرت قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱتۡلُ﴾ يعني: اقرأ ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: ما أنزل إليك من هذا القرآن ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ يعني: وأدِّ الصلاة التي فرضها الله عليك بحدودها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى الصلاة التي ذُكرت في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى بها القرآن الذي يقرأ في موضع الصلاة، أو في الصلاة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال آخرون: بل عنى بها الصلاة.

وأورد الطبري آثارًا كثيرةً بذلك واختار الطبري أن المراد الصلاة نفسها.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إن لم يكن معنيًّا بها ما يتلى فيها؟ قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش، لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولذلك قال ابن مسعود: من لم يطع صلاته لم يزدد من الله إلا بعدًا. وذلك أن طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر.

وأخرج الطبري بسندٍ صحيح من طريق محمد بن أبي موسى، قال: كنت قاعدًا عند ابن عباس، فجاءه رجل، فسأل ابن عباس عن ذكر الله أكبر، فقال ابن عباس: الصلاة والصوم، قال: ذاك ذكر الله، قال رجل: إني تركت رجلًا في رحلي يقول غير هذا، قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ قال: ذكر الله العباد أكبر من ذكر العباد إياه، فقال ابن عباس: صدق والله صاحبك.

وله طرق عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا مفادها ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له.

وأورد الطبري أثر أبي الدرداء وهو صحيح موقوفًا عليه قال:

«ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من أن تغزوا عدوَّكم، فتضربوا أعناقهم، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم؟ قالوا: ما هو؟ قال: ذكركم ربكم، وذكر الله أكبر».

وأورد الطبري قولًا آخر في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ حاصله ولذكركم الله أفضل من كل شيء.

وأورد أقوالًا أُخر منها:

لذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة وقول آخر: وللصلاة التي أتيت أنت بها وذِكرك الله فيها أكبر مما نهتك الصلاة من الفحشاء والمنكر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأشبه هذه الأقوال بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، قول من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ يقول: والله يعلم ما تصنعون أيها الناس في صلاتكم، من إقامة حدودها، وترك ذلك وغيره من أموركم، وهو مجازيكم على ذلك، يقول: فاتقوا أن تضيعوا شيئًا من حدودها، والله أعلم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى آمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك. وقد جاء في الحديث من رواية عمران، وابن عباس مرفوعًا: «**مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر،**

لم تزده من الله إلا بعدًا».

قلت: وهذا الحديث ضعيف من الطرق التي وقفت عليها وقد أورده الحافظ ابن كثير.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ يريد إن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب كما قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**» خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال فيه: حديث حسن صحيح. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن والمعنى: الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر وعن الزنى والمعاصي.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا:

ثم أخبر حكمًا منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة والصلاة تشغل كل بدن المصلي فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه وادكر أنه واقف بين يديه وأنه مطلع عليه ويراه صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيبتها ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة فهذا معنى هذه الأخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون

قلت: لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله وهذا أبلغ في المقصود وأتم في المراد فإن الموت ليس له سن محدود ولا زمن مخصوص

ولا مرض معلوم وهذا مما لا خلاف فيه وروي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تعالى وحق لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك، فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل كصلاتنا - وليتها تجزي - فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان فإن كان على طريقة معاصي تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن ابن مسعود والحسن والأعمش قولهم: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدًا**» وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي ﷺ وذلك غير صحيح السند، قال ابن عطية: سمعت أُبي رضي الله عنه يقول: فإذا قررنا ونُظِر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله بل تتركه على حاله ومعاصيه من الفحشاء والمنكر والبعد فلن تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان سبيله فكأنها بعدته حين لم تكف بعده عن الله وقيل لابن مسعود: إن فلانا كثير الصلاة فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم.

وقال: وقيل: ذكركم الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء، وقيل: المعنى إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر، وقال الضحاك: ولذكر الله عندما يحرم فيترك أجل الذكر وقيل:

المعنى ولذكر الله للنهي عن الفحشاء المنكر أكبر أي كبير وأكبر يكون بمعنى كبير وقال ابن زيد وقتادة: ولذكر الله أكبر من كل شيء أي أفضل من العبادات كلها بغير ذكر وقيل: ذكر الله يمنع من المعصية فإن من كان ذاكرًا له لا يخالفه قال ابن عطية: وعندي أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ
وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا
لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ
وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ
مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ
أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ
وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ
يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ
بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢ ﴾

[العنكبوت: ٤٦-٥٢]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ يَجْحَدُ - لَّٱرْتَابَ - ٱلْمُبْطِلُونَ - بَيِّنَٰتٌ - بِٱلْبَٰطِلِ - وَذِكْرَىٰ ﴾

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَجْحَدُ﴾	يكفر – ينكر
﴿لَّٱرْتَابَ﴾	لتشكك
﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾	أهل الباطل، أهل الشرك – أتباع الشيطان
﴿بَيِّنَٰتٌ﴾	واضحات
﴿وَذِكْرَىٰ﴾	موعظة
﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾	بالشيطان، وما يدعو إليه من الشرك

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ولا تجادلوا يا أهل الإيمان أهل الكتاب، الذين هم اليهود والنصارى إلا بالطريقة الحسنة التي تؤتي أكلها بإذن ربها بلين الخطاب وجميل الكلام وبيان الحجة أجمل بيان وأتم بيان، كما قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وكما قال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٣٥] وكما قال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وكما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:

٤٤] ونحو ذلك من طيب الكلام ونافعه، لكن الذين ظلموا منهم وظهر منهم أنهم لا يريدون التوصل إلى الحق بل يريدون تضليل العباد وغش العباد والمراوغة والمراد فهؤلاء يُشتد عليهم كما قال تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التحريم: ٩]، فهؤلاء الذين منهم من يدعي لله الولد، ومن يقول إن الله فقير ونحن أغنياء ومن يقول يد الله مغلولة، ومن يجعل لله الولد والشريك، ومن يطعن في رسول الله، كلهم داخلون في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ فهؤلاء يُشتد عليهم، أما غيرهم فيُخاطبوا بالحسنى وقولوا لهم يا أهل الإيمان عند مجادلتكم لهم آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا على لسان نبينا محمد ﷺ وآمنا بالذي أنزل على أنبيائكم يا أهل الكتاب آمنا بالتوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام آمنا بالإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام آمنا بكل الكتب وبكل الرسل التي أنزلها الله والتي أرسلها الله. وإلهنا الذي نعبده هو الله إله واحد هو ربنا وربكم هو إلهنا وإلهكم ونحن له مستسلمون خاضعون سامعون مطيعون.

هذا، ومن أهل العلم من كان يرى أن الآية الكريمة ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ وقال فريق: إن قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ هم الذين لا يؤدون الجزية، وأرى الذي قدمته أولى من أنه لا نسخ، والله أعلم.

وهذه أقوال بعض العلماء في هذه الآية الكريمة.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون بالله وبرسوله اليهود والنصارى، وهم ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يقول: إلا بالجميل من القول، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حُججه.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: إلا الذين أبوا أن يقرّوا لكم بإعطاء الجزية، ونصبوا دون ذلك لكم حربًا، فإنهم ظلمة، فأولئك جادلوهم بالسيف حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية.

قال الطبري:

وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الذين قد آمنوا به، واتبعوا رسوله فيما أخبروكم عنه مما في كتبهم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ فأقاموا على كفرهم، وقالوا: هذه الآية محكمة، وليست بمنسوخة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد: في قوله: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ قال: ليست بمنسوخة، لا ينبغي أن تجادل من آمن منهم، لعلهم يحسنون شيئًا في كتاب الله لا تعلمه أنت فلا تجادله، ولا ينبغي أن تجادل إلا الذين ظلموا، المقيمَ منهم على دينه. فقال: هو الذي يُجادَل، ويقال له بالسيف، قال: وهؤلاء يهود. قال: ولم يكن بدار الهجرة من النصارى أحد، إنما كانوا يهودًا هم الذي كلَّموا وحالفوا رسول الله ﷺ، وغدرت النضير يوم أُحد، وغدرت قُريظة يوم الأحزاب.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية قبل أن يؤمر النبيُّ ﷺ بالقتال، وقالوا: هي منسوخة، نسخها قوله: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾

[التوبة: ٢٩].

عن قَتادة، قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ثم نسخ بعد ذلك، فأمر بقتالهم في سورة براءة، ولا مجادلة أشدّ من السيف، أن يقاتلوا حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، أو يقرّوا بالخراج.

وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: عني بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾: إلا الذين امتنعوا من أداء الجزية، ونصبوا دونها الحرب.

فإن قال قائل: أو غير ظالم من أهل الكتاب إلا من لم يؤدّ الجزية؟ قيل: إن جميعهم، وإن كانوا لأنفسهم بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله محمدا ﷺ، ظلمة، فإنه لم يعن بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾. ظلم أنفسهم. وإنما عنى به: إلا الذين ظلموا منهم أهل الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، فإن أولئك جادلوهم بالقتال.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب؛ لأن الله تعالى ذكره أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب، بغير الذي هو أحسن بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ فمعلوم إذ كان قد أذن لهم في جدالهم أن الذين لم يؤذن لهم في جدالهم إلا بالتي هي أحسن غير الذين أذن لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن؛ لأن المؤمن منهم غير جائز جداله إلا في غير الحقّ، لأنه إذا جاء بغير الحق، فقد صار في معنى الظلمة في الذي خالف فيه الحقّ، فإذا كان ذلك كذلك، تبين أن لا معنى لقول من قال: عنى بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أهل الإيمان منهم، وكذلك لا معنى لقول من قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال، وزعم أنها منسوخة؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر،

ولا دلالة على صحته من فطرة عقل.

وقد بيَّنا في غير موضع من كتابنا، أنه لا يجوز أن يحكم على حكم الله في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، الذين نهاهم أن يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن: إذا حدثكم أهل الكتاب أيها القوم عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن ويجوز أن يكونوا فيه صادقين، وأن يكونوا فيه كاذبين، ولم تعلموا أمرهم وحالهم في ذلك، فقولوا لهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ مما في التوراة والإنجيل، ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ يقول: ومعبودنا ومعبودكم واحد ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ يقول: ونحن له خاضعون متذللون بالطاعة فيما أمرنا ونهانا.

وأورد الطبري حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال[1]: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُم**، ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾».

وقال ابن كثير رحمه الله:

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لِمَنْ أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

(١) البخاري (٤٤٨٥، ٧٣٦٢).

بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذٍ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال جابر: أمِرْنَا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.

قال مجاهد: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ ﴾ يعني: أهل الحرب، وَمَنِ امتنع منهم عن أداء الجزية.

وقوله: ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نُقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقًّا، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلًا ولكن نؤمن به إيمانًا مجملًا معلقًا على شرط وهو أن يكون منزلًا لا مبدلًا ولا مؤولًا.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث البخاري الذي قدمناه.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[(١)] وفيه: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسوله ﷺ أحدث تقرؤونه محضًا لم يُشَب، وقد حدَثكم أن أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله، وغيروه وكتبوا بأيديهم

(١) البخاري (٧٣٦٣).

الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمنًا قليلًا؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وكذا أورد ما أخرجه البخاري[1] من طريق حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة -وذكرَ كعبَ الأحبار- فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب.

قال ابن كثير:

قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علمًا بذلك، كل بحسبه، ولله الحمد والمنة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فقال مجاهد: هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله ۵ والتنبيه على حججه وآياته رجاء إجابتهم إلى الإيمان لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة وقوله على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ معناه: ظلموكم وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق وقيل: المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿إِلَّا

(١) البخاري (٧٣٦١).

﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ يريد به من بقي على كفره منهم كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم والآية على هذا أيضًا محكمة وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٩] قاله قتادة. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: جعلوا لله ولدًا وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨١] فهؤلاء المشركون الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا الجزية فانتصروا منهم، قال النحاس وغيره: من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك وقول مجاهد حسن؛ لأن أحكام الله ٥
لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول واختار هذا القول ابن العربي وقال مجاهد وسعيد بن جبير: وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ معناه إلا الذين نصبوا، للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وكما أنزلنا على من كان قبلك كتبًا فإنا أنزلنا إليك القرآن كذلك فالذين آتيناهم الكتاب، يؤمنون به، والمراد بهم مؤمنوا أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتب المُنزلة على أنبيائهم، وكذا فإنهم آمنوا بالقرآن عند نزوله وقبل نزوله.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ للعلماء فيه وجهان:

أحدهما: قول من قال: إن المراد بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ أن الذين آتيناهم الكتاب المعني بهم أهل الكتاب الذين كانوا على دينهم وبدينهم مستمسكين قبل مبعث النبي ﷺ، فهؤلاء كانوا مؤمنين بالقرآن قبل نزوله إذ قد أخبرت به إجمالًا كتبهم.

فعليه فقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ المراد به ومن أهل الكتاب المعاصرين لرسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام وغيره يؤمنون به عند نزوله على رسول الله ﷺ وبعد نزوله.

والقول الآخر: أن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ هم مؤمنوا أهل الكتاب عمومًا و﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ المراد: ومن أهل مكة الذين كانوا أهل شرك من يؤمن به، وهم الذين أصبحوا بعد صحابة لرسول الله ﷺ.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فحاصل معناه، وما ينكر آياتنا ويكذب بها إلا الكافرون – والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: كما أنزلنا الكتب على مَن قبلك يا محمد من الرسل ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ هذا ﴿ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قبلك من بني إسرائيل ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ يقول: ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك اليوم من يؤمن به، كعبد الله بن سلام ومن آمن برسوله من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وما يجحد بأدلتنا وحججنا إلا الذي يجحد نعمنا عليه، وينكر توحيدنا وربوبيتنا على علم منه عنادًا لنا.

وأورد الطبري بإسناد حسن عن قَتادة قال: إنما يكون الجحود بعد المعرفة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ أي: الذين أخذوه فتلَوْه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأشباههما.

وقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾، يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا مَنْ يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيهات.

❁ ❁ ❁

الدليل على أن النبي ﷺ كان أميًا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: وما كنت يا رسول الله تقرأ قبل نزول القرآن عليك أي كتبٍ ولا تعرف الكتابة كذلك فقد كنت أُميًّا لا تقرأ ولا تكتب، وإذا كنت تقرأ وتكتب لتشكك في نبوتك أهل الباطل من أهل الكتاب وأهل الشرك فأهل الكتاب كانوا يعلمون عنك في كتبهم أنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾، فإذا لم تكن أميًّا عند مجيء بعثتك لتشككوا في ذلك.

وكذا أهل الشرك من أهل مكة وغيرهم لو كنت تقرأ أو تكتب لقالوا: إنك قرأت كتبًا لغيرك وتخبرنا بما فيها، مع كونهم أيضًا قد قالوا بذلك، ولكنهم كانوا يعلمون بطلان قولهم لكون الرسول كان أميًّا.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَتْلُوا۟﴾ يعني: تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ يعني: من قبل هذا الكتاب الذي أنزلته إليك ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ يقول: ولم تكن تكتب بيمينك، ولكنك كنت أمِّيًّا ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يقول: ولو كنت من قبل أن يُوحَى إليك تقرأ الكتاب، أو تخطه بيمينك، ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ﴾ يقول: إذن لشكّ -بسبب ذلك في أمرك وما جئتهم به من عند ربك من هذا الكتاب الذي تتلوه عليهم- المبطلون القائلون: إنه سجع وكهانة، وإنه أساطير الأوّلين.

وأورد بإسناد حسن عن قَتادة: قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ قال: كان نبيّ الله لا يقرأ كتابًا قبله، ولا يخطه بيمينه، قال: كان أُمِّيا، والأمّي: الذي لا يكتب.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، أي: قد لبثت في قومك -يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. وهكذا كان، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم القيامة، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من

متأخري الفقهاء - كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه- أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله» فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثم أخذ فكتب»: وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالًا وخطبوا به في محافلهم: وإنما أراد الرجل -أعني الباجي، فيما يظهر عنه -أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال عليه الصلاة والسلام إخبارًا عن الدجال[1]: «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية: «ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن».

وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت عليه السلام حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا﴾ أي: تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتأكيد النفي، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيد أيضًا، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تخطها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم أي: وما كنت يا محمد تقرأ قبله

(١) البخاري (٧١٣١).

ولا تختلف إلى أهل الكتاب بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك فلو كنت ممن يقرأ كتابًا ويخط حروفًا ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب وكان لهم في ارتيابهم متعلق وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدًا ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية وقال النحاس: دليلًا على نبوته لقريش لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم وزالت الريبة والشك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – بل هذا القرآن فيه دلالات واضحات وحجج باهرات دالة على وحدانية الله ﷻ وعلى قدرته وعلمه، محفوظة تلك الآيات في صدور أهل العلم من المؤمنين بالنبي محمد ﷺ يستدلون بها على وحدانية الله وصدق رسله، وما يجحد بآيات الله أي: وما ينكرها إلا أهل الظلم، وما يكفر بها إلا أهل الظلم، والمراد هنا أهل الكفر والعياذ بالله.

هذا، وهناك وجه آخر ذكره الطبري واختاره؛ حاصله: أن قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ معناه: بل رسول الله ﷺ وكونه سيكون أميًّا آياتٌ مثبتات راسخات في صدور الذين أوتوا العلم من الذين أوتوا الكتاب، فإنه محفوظ في صدورهم أن النبي ﷺ سيكون أميًّا وإلى هذا

الأخير نحا الطبري في تفسيره.

وها هو قوله مع طائفة آخرين من أهل العلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ فقال بعضهم: عنى به نبيَّ الله ﷺ، وقالوا: معنى الكلام: بل وجود أهل الكتاب في كتبهم أن محمدًا ﷺ لا يكتب ولا يقرأ، وأنه أمّي، آيات بينات في صدورهم.

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف عن ابن عباس قوله: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ قال: كان الله تعالى أنزل شأن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل لأهل العلم، وعلمه لهم، وجعله لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوّته أن يخرج حين يخرج لا يعلم كتابًا، ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات البينات.

وبإسناد حسن عن قَتادة: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ من أهل الكتاب، صدَّقوا بمحمد ونعته ونبوّته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال آخرون: عنى بذلك القرآن، وقالوا: معنى الكلام: بل هذا القرآن آيات بيِّنات في صدور الذين أوتوا العلم، من المؤمنين بمحمد ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بذلك: بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا، ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب.

وإنما قلت ذلك أولى التأويلين بالآية؛ لأن قوله: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي

﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بين خبرين من أخبار الله عن رسوله محمد ﷺ، فهو بأن يكون خبرًا عنه، أولى من أن يكون خبرًا عن الكتاب الذي قد انقضى الخبر عنه قبل.

وقوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ما يجحد نبوَّة محمد ﷺ وأدلته، ويُنكر العلم الذي يعلم من كتب الله، التي أنزلها على أنبيائه، ببعث محمد ﷺ ونبوَّته ومبعثه إلا الظالمون، يعني: الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ٥.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء، يَسَّره الله عليهم حفظًا وتلاوةً وتفسيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا**»[(١)].

وفي حديث عياض بن حمار، في صحيح مسلم[(٢)]: «**يقول الله تعالى: إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان**». أي: لو غسل الماء المحلَّ المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل.

وقوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق

---

(١) البخاري (٧٢٧٤).
(٢) مسلم (٢٨٦٥).

ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به يحفظونه ويقرؤونه ووصفهم بالعلم لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوبًا عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا، وهذا اختيار الطبري.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وقال أهل الكفر من أهل مكة وغيرهم لولا أُنزل على محمد ﷺ معجزة من ربِّه ﷻ كالتي أوتاها صالح أو موسى أو داود أو سليمان أو عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو غير هؤلاء.

لولا أوتي ناقة كناقة صالح أو عصًا كعصى موسى أو إلانة الحديد وتسبيح الجبال والطير كما حدث لداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو تسخير الريح والشياطين كما حدث لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله كعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو غير ذلك.

فقل لهم يا رسول الله: إنما هذه المعجزات عند الله يُعطيها من يشاء وإنما أمري معكم أني لكم نذير أُنذركم عذاب الله إن أنتم بقيتم على شرككم وضلالكم، قد أبنت لكم عن خطإ ما أنتم فيه وأبنت لكم عن كوني نذير أنذركم، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال المشركون من قريش: هلا أنزل على محمد آية من ربه، تكون حجة لله علينا، كما جعلت الناقة لصالح، والمائدة آية لعيسى؟! قل يا محمد: إنما الآيات عند الله، لا يقدر على الإتيان بها غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما أنا نذير لكم، أنذركم بأس الله وعقابه على كفركم برسوله. وما جاءكم به من عند ربكم ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: قد أبان لكم إنذاره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات -يعنون- ترشدهم إلى أن محمدًا رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيرًا لكم بَيِّن النذارة فَعَلَيَّ أن أبلغكم رسالة الله و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾

[البقرة: ٢٧٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ ومعناه: هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء؟! وقيل: كما جاء صالح بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى أي ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

❃ ❃ ❃

س: هل صح للآية الكريمة ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .....﴾ سبب نزول؟

ج: لم أقف لها على سبب نزولٍ صحيح.

❃ ❃ ❃

كون القرآن أعظم معجزة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: أولم يكف هؤلاء السائلين عن الآيات والمعجزات أننا أنزلنا عليك يا رسول الله أعظم آية وأعظم معجزة وهي هذا القرآن الذي تتلوه عليهم تدعوهم فيه لكل خيرٍ وتحذرهم من كل شرٍّ ويكون سببًا في نجاتهم من النار ووراثتهم أعالي الجنان، فيه نبأ ما قبلهم وحكم ما بينهم وخبر ما بعدهم، قد حمل أجمل تشريع وأحسن الأحكام وجميل البيان، ترق له القلوب وتصفو له الأفئدة، وتنذرف منه الدموع لا يبلى عن

كثرة القراءة والترداد، إنه كتاب الله لا يوفيه حقه إلا الله، أولم يكف هؤلاء المشركين أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم باقيًا يتلى إنه حقًّا أعظم معجزة وأوضح آية وأعظم بيان إن في ذلك القرآن لرحمة يرحم الله بها العباد إذا اهتدوا بهديه واستقاموا على أمره، و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ موعظة يتعظ بها أولوا الألباب أهل الإيمان.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أولم يكف هؤلاء المشركين يا محمد، القائلين: لولا أنزل على محمد ﷺ آية من ربه، من الآيات والحجج ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: يُقرأ عليهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ يقول: إن في هذا الكتاب الذي أنزلنا عليهم لرحمة للمؤمنين به وذكرى يتذكرون بما فيه من عبرة وعظة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى مبينًا كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم -وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه -فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولا تخالط أحدًا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما

في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم من حديث[(١)] أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». أخرجاه من حديث الليث.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذا القرآن: ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: بيانًا للحق، وإزاحة للباطل و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين، ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه فعجزوا ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر ونحن لا نعرف السحر والكلام مقدور لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة وقيل: رحمة

(١) أحمد (٢/ ٣٤١)، والبخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين بك الجاحدين نبوتك المشركين بالله ما لم يُنزل به سلطانًا، السائلين عن المعجزات، قل لهؤلاء رضيت بالله شهيدًا يشهد عليَّ وعليكم إن كنت كاذبًا فهو يشهد عليَّ وإن كنتم أنتم الكذبة، وهم كذلك فهو شهيد عليكم، كفى به شهيدًا بيني وبينكم فهو خير الشاهدين، وهو الذي يعلم كل شيء في نفسي وفي نفوسكم، ويعلم ما في السموات والأرض، والذين آمنوا بالشيطان وصدقوه فيما دعاهم إليه من اتخاذ شريك لله ﷻ أولئك هم الذين خسروا أنفسهم وضيعوها وتسببوا لها في وراثة الجحيم عياذًا بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، للقائلين لك: لولا أنزل عليك آية من ربك، الجاحدين بآياتنا من قومك: كفى الله يا هؤلاء بيني وبينكم، شاهدًا لي وعليّ؛ لأنه يعلم المحقَّ منا من المبطل، ويعلم ما في السموات وما في الأرض، لا يخفى عليه شيء فيهما، وهو المجازي كل فريق منا بما هو أهله، المحق على ثباته على الحقّ، والمبطل على باطله بما هو أهله، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ يقول: صدقوا بالشرك، فأقرّوا به وكفروا

به، يقول: وجحدوا الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يقول: هم المغبونون في صفقتهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قَتادة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ قال: الشرك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾ أي قل للمكذبين لك كفى بالله شهيدًا يشهد لي بالصدق فيما أدعيه من أني رسوله وأن هذا القرآن كتابه ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي لا يخفى عليه شيء وهذا احتجاج عليهم في صحة شهادته عليهم لأنهم قد أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ قال يحيى بن سلام: بإبليس وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام قاله ابن شجرة ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي لتكذيبهم برسله وجحدهم لكتابه وقيل: بما أشركوا به من الأوثان وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنه أرسلني، فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾: لا تخفى عليه خافية.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: يوم معادهم

سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، سيجازيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

❁ ❁ ❁

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ
٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ٥٥ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ
نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ
٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا
ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾

[العنكبوت: ٥٣-٦٠]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى - بَغْتَةً - لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ - يَغْشَىٰهُمُ - فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ - لَنُبَوِّئَنَّهُم - يَتَوَكَّلُونَ - وَكَأَيِّن - لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾؟

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾	وقت أجَّلهُ الله وحدَّده
﴿بَغْتَةً﴾	فجأةً
﴿لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾	سيحيط بهم من كل جانب – محيطة بهم من كل جانب
﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾	يعلوهم – يُغطيهم
﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾	لا تعبدوا غيري
﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾	لننزلنهم – لنسكننهم
﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾	يعتمدون
﴿وَكَأَيِّن﴾	كم
﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾	لا تدخر رزقها لغدٍ

❁ ❁ ❁

استعجال أهل الكفر نزول العذاب عليهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ج: المعنى –والله أعلم-: ويستعجلونك بنزول العذاب عليهم لكونهم

يكذبونك وينكرون وقوع العذاب فيقولون على سبيل التحدي ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] أي: نصيبنا من العذاب، ويقول: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] إلى غير ذلك من تمنيهم العذاب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: ولولا أننا كتبنا عليهم أن يعيشوا زمانًا لنزل عليهم العذاب في الحال ولأهلكناهم، وليأتينهم هذا العذاب فجأة من حيث لا يشعرون.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويستعجلك يا محمد هؤلاء القائلون من قومك: لولا أنزل عليه آية من ربه بالعذاب ويقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ولولا أجل سميته لهم فلا أهلكهم حتى يستوفوه ويبلغوه، لجاءهم العذاب عاجلًا. وقوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وليأتينهم العذاب فجأة، وهم لا يشعرون بوقت مجيئه قبل مجيئه.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة: قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ قال: قال ناس من جهلة هذه الأمة ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا

﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال هاهنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: لولا ما حَتَّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبًا سريعًا كما استعجلوه.

ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستعجلون بالعذاب، وهو واقع بهم لا محالة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ لما أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عجل لنا هذا العذاب وقيل: إن قائل ذلك النضر بن الحارث وأبو جهل حين قالا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في نزول العذاب قال ابن عباس: يعني هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة بيانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] وقال الضحاك: هو مدة أعمارهم في الدنيا. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى، قال يحيى بن سلام: وقيل: الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم قاله ابن شجرة وقيل: هو القتل يوم بدر وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر ودليله قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني الذي استعجلوه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون بنزوله عليهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: يستعجل أهلُ الكفر نزول العذاب عليهم وإنه آتيهم لا محالة وسيدخلون جهنم وتحيط بهم من كل الجوانب كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩] ويقويه قوله بعدها: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ ...﴾ أي: وإن جهنم لميحطة بهم يوم يغشاهم العذاب.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك في الدنيا، وذهب أن البحر تحت النار فقد أورد الطبري بسندٍ صحيح عن عكرمة في هذه الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال: البحر.

وقال الطبري قبلها.

يقول تعالى ذكره: يستعجلكَ يا محمد هؤلاء المشركون بمجيء العذاب ونزوله بهم، والنار بهم محيطة، لم يبق إلا أن يدخلوها. وقيل: إن ذلك هو البحر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة فما معنى الاستعجال وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية[1] وأصحابه من المشركين حين قالوا: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

❁ ❁ ❁

(١) وذلك يفتقر إلى صحة الإسناد.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

ج: هنا - والله أعلم- وجهان:

أحدهما: أن الآية متعلقة بما قبلها، فيكون المعنى وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب...

والثاني: أن المعنى واذكر يوم يغشاهم العذاب...

أما عن معنى الآية إجمالًا يوم يغطيهم العذاب من كل الجوانب من تحتهم ومن فوقهم كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١] عند ذلك نقول للظالمين الكافرين الجاحدين: ذوقوا جزاء تكذيبكم وجزاء شرككم وكفركم وسيئ أعمالكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يوم يغشى الكافرين العذاب، من فوقهم في جهنم، ومن تحت أرجلهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾: أي في النار.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: ويقول الله لهم: ذوقوا ما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله، وما يسخطه فيها. وبالياء في ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ﴾ قرأت عامة قرّاء الأمصار خلا أبي جعفر، وأبي عمرو، فإنهما قرآ ذلك بالنون: (وَنَقُولُ). والقراءة التي هي القراءة عندنا بالياء، لإجماع الحجة من القرّاء عليها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي.

وقوله: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩]، وقال: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣-١٦] ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ١٤].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ قيل: هو متصل بما هو قبله أي يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم فإذ غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم وإنما قال: ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ للمقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم كما قال الشاعر:

علفتهـــا تبنـــا ومـــاء بـــاردا

❀ ❀ ❀

حث المؤمن على إقامة دين في أي مكان

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾؟

ج: حاصل المعنى – والله أعلم –: أن الله ﷻ ينادي عباده ويأمرهم إذا تعذرت عليهم طاعته في مكانٍ من الأماكن فليتركوه وليذهبوا إلى مكان آخر أكثر أمانًا يعبدون الله ﷻ فيه ولا يعصونه، فيقول تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يا أهل الإيمان والتصديق ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فأخلصوا في عبادتي وانتقلوا في أرضي حيث تستطيعوا الإخلاص في عبادتي، ثم هوَّن عليه أمر الدنيا بقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ أي: أنكم ستموتون حتمًا إما في بلادكم أو في أي أرض كنتم ثم إن مرجعكم إلى الله ﷻ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يعفو.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من عباده: يا عبادي الذين وحَّدوني، وآمنوا بي، وبرسولي محمد ﷺ ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أريد من الخبر عن سعة الأرض، فقال بعضهم: أريد بذلك أنها لم تضق عليكم فتقيموا بموضع منها لا يحلّ لكم المُقام فيه، ولكن إذا عمل بمكان منها بمعاصي الله، فلم تقدروا على تغييره، فاهرُبوا منه.

وأورد الطبري آثارًا كثيرةً بذلك.

وقال: وقال آخرون: معنى ذلك: إن ما أخرج من أرضي لكم من الرزق واسع لكم. ثم قال:

وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: إن أرضي واسعة، فاهربوا ممن منعكم من العمل بطاعتي؛ لدلالة قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ على

ذلك، وأن ذلك هو أظهر معنييه، وذلك أن الأرض إذا وصفها بِسعَة، فالغالب من وصفه إياها بذلك لا تضيق جميعها على من ضاق عليه منها موضع، لا أنه وصفها بكثرة الخير والخصب.

وقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ يقول: فأخلصوا لي عبادتكم وطاعتكم، ولا تطيعوا في معصيتي أحدًا من خلقي.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب نبيه: هاجِرُوا من أرض الشرك، من مكة إلى أرض الإسلام المدينة، فإن أرضي واسعة، فاصبروا على عبادتي، وأخلِصوا طاعتي، فإنكم ميتون وصائرون إليَّ؛ لأن كل نفس حية ذائقة الموت، ثم إلينا بعد الموت تُرَدّون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

ثم قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع، فَمَنْ كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه تمام الثواب.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس

بصواب، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها.

وقال:

وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ ﴿إياي﴾ منصوب بفعل مضمر أي فاعبدوا إياي فاعبدون فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني والفاء في قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ بمعنى الشرط أي إن ضاق بكم موضع فإياي فاعبدوني في غيره لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ تقدم في (آل عمران) وإنما ذكره هاهنا تحقيرًا لأمر الدنيا ومخاوفها كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا فحقر الله شأن الدنيا أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضًا منه تعالى وذكر الجزاء الذي ينالونه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

نادى الله جلَّ وعلا عباده المؤمنين، وأكّد لهم أن أرضه واسعة، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره، كما دلّ عليه تقديم المعمول الذي هو إياي؛ كما بيّناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

والمعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرون فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربّهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها

يقدرون فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول الله ﷺ والمسلمون.

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات أُخر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: والذين آمنوا بالله ﷻ وصدقوا رسله وأتبعوا ذلك بعمل الصالحات طائعين لله في كل ما أمرهم به منتهين عن كل ما نهى عنه لنُسكننهم من الجنة غرفًا عوالي تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدًا لا يحوَّلون عنها ولا يرغبون في التحول عنها، نعم الأجر الذي أعده الله لعاملي الصالحات، الذين صبروا على طاعة الله ﷻ وصبروا على أقداره، واعتمدوا على الله في كل شؤونهم ولقضاء كل حوائجهم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أخبرهم جلّ ثناؤه عما أعدّ للصابرين منهم على طاعته من كرامته عنده، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعني: صدقوا الله ورسوله فيما جاء به من عند الله، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: وعملوا بما أمرهم الله فأطاعوه فيه، وانتهوا

عما نهاهم عنه ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ يقول: لننزلنهم من الجنة عَلالي.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير نهاية، ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ يقول: نعم جزاء العاملين بطاعة الله هذه الغرفُ التي يُثْوِيهُمُوها الله في جنَاته، تجرى من تحتها الأنهار، الذين صبروا على أذى المشركين في الدنيا، وما كانوا يَلْقون منهم، وعلى العمل بطاعة الله وما يرضيه، وجهاد أعدائه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أرزاقهم وجهاد أعدائهم، فلا يَنْكُلون عنهم، ثقة منهم بأن الله مُعْلِي كلمته، ومُوهِن كيد الكافرين، وأن ما قُسِم لهم من الرزق فلن يَفُوتَهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: لنسكننهم منازل عاليةً في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر، وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: نعمت هذه الغرفُ أجرًا على أعمال المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده.

قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذِنَ، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، حدثني أبو معَاتق الأشعري، أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه: «**أن في الجنة غُرَفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها،**

أعدَّها الله لِمَنْ أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وأباح الصيام، وأقام الصلاة والناس نيام»[(١)].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم.

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار.

الرزق من عند الله

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: وكم من دابة تمشي على الأرض لا تستطيع أن تدخر رزقها لغدٍ، ولا تحمله على ظهرها لغدٍ يرزقها الله ﷻ يومًا بيوم ووقتًا بوقتٍ كلما جاعت وجدت طعامها بإذن الله وهو سبحانه السميع للأقوال، ولكل شيء العليم بأحوال عباده، وفي هذا تهييج على الهجرة في سبيل الله وقذف الطمأنينة في النفوس أن الله يتولى أمر العباد. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، من أصحاب محمد ﷺ: هاجروا وجاهدوا في الله أيها المؤمنون أعداءه، ولا تخافوا عيلة ولا إقتارًا، فكم من دابة ذات حاجة إلى غذاء ومطعم ومشرب ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾، يعني: غذاءها لا تحمله، فترفعه في يومها لغدها لعجزها عن ذلك ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يومًا بيوم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم: نخشى بفراقنا أوطاننا العَيْلة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ما في أنفسكم،

(١) أحمد (٥/ ٣٤٣).

وما إليه صائر أمركم، وأمر عدوّكم، من إذلال الله إياهم، ونُصرتكم عليهم، وغير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئًا لغد، ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ يسوي بين الحريص والمتوكل في رزقه وبين الراغب والقانع وبين الحيول والعاجز حتى لا يغتر الجلِدُ أنه مرزوق بجَلَدِهِ ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم.

❀ ❀ ❀

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ
فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن
بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا
هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ
﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

[العنكبوت: ٦١-٦٩].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿يُؤْفَكُونَ – يَبْسُطُ – وَيَقْدِرُ لَهُۥ – لَهْوٌ – ٱلْحَيَوَانُ – ٱلْفُلْكِ – مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ – حَرَمًا ءَامِنًا – وَيُتَخَطَّفُ – ٱلنَّاسُ – أَفَبِٱلْبَٰطِلِ – مَثْوًى – جَٰهَدُوا۟ فِينَا – لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يُؤْفَكُونَ﴾	يصرفون عن الحق – يكذبون
﴿يَبْسُطُ﴾	يوسع
﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾	يضيق
﴿لَهْوٌ﴾	ما يُلتهى به
﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾	الحياة الباقية
﴿ٱلْفُلْكِ﴾	السفن العظيمة
﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾	مفردين ربكم بالدعاء والعبادة
﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾	مكة جعلناها مؤمنة لا يحمل فيها سلاح ولا يعضد فيها شوك... إلى غير ذلك
﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾	يُقتل الناس وتسلب أموالهم ويعتدى عليهم ويؤسرون
﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾	أفبوعد الشيطان – أفبالشرك
﴿مَثْوًى﴾	مقامٌ ومنزلٌ
﴿جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾	جاهدوا لنصرة ديننا

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾	لنوفقنهم ولندلنهم على طرق الخير الموصلة لمرضاتنا وجناتنا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر يجريان هذا يعقب ذاك؟ ليقولن الله الذي فعل ذلك كله.

فمن أي وجهٍ إذن يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ويعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، من خلق السموات والأرض فَسَوّاهن، وسخَّر الشمس والقمر لعباده، يجريان دائبين لمصالح خلق الله، ليقولنّ: الذي خلق ذلك وفعَلَه الله. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: فأنى يُصْرفون عمن صنع ذلك، فيعدلون عن إخلاص العبادة له.

❃ ❃ ❃

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: إن الله عَزَّوَجَلَّ يوسع على من يشاء من عباده في أرزاقهم ويضيق عليهم إن شاء، وهو عليم بكل ما يصلح عباده، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الله يوسع من رزقه لمن يشاء من خلقه، ويضيق فيُقتِّر لمن يشاء منهم، يقول: فأرزاقكم وقسمتها بينكم أيها الناس بيدي، دون كل أحد سواي، أبسط لمن شئت منها، وأقتر على من شئت، فلا يخلفنكم عن الهجرة وجهاد عدوّكم خوف العيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن الله عليم بمصالحكم، ومن لا يصلُح له إلا البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلا التقتير عليه، وهو عالم بذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية لما عير المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء وكان هذا تمويهًا وكان في الكفار فقراء أيضًا أزال الله هذه الشبهة وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء فكيف تشكون في الرزق فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد ولهذا وصله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر فكل شيء بقضاء وقدر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم وقيل: عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ولئن سألت هؤلاء الكفار من أنزل من السماء مطر فأنبت به الأرض بعد أن كانت ميتة لا حياة فيها ليقولن الله الذي فعل ذلك، فقل لهم الحمد لله على إقراركم أن الله فعل ذلك، وقل في نفسك الحمد لله الذي فعل ذلك، واعجب من أمرهم، وكون أكثرهم يقرون بذلك ويتجهون إلى عبادة غيره، فحقًّا إن أكثرهم لا يعقلون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك من نزل من السماء ماء، وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يقول: فأحيا بالماء الذي نزل من السماء الأرض، وإحياؤها: إنباته النبات فيها ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ من بعد جدوبها وقحوطها.

وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ يقول: ليقولنّ الذي فعل ذلك الله، الذي له عبادة كل شيء.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ يقول: وإذا قالوا ذلك، فقل: الحمد لله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول: بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون ما لهم فيه النفع من أمر دينهم، وما فيه الضرّ، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله، ينالون بها عند الله زُلْفة وقربة، ولا يعلمون أنهم هالكون، مستوجبون الخلود في النار.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين –الذين يعبدون معه غيره –معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها

واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كُلًّا منهم، ومَنْ يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبدُّ بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك».

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي من السحاب مطرًا ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جدبها وقحط أهلها ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي فإذا أقررتم بذلك فلم تشركون به وتنكرون الإعادة وإذا قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين فكرر تأكيدًا ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يتدبرون هذه الحجج وقيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم بذلك وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وما هذه الحياة الدنيا بما فيها من ملاذٍ ومطاعم ومشارب ومساكن ومناكح وغير ذلك من المتاع الفاني الزائل إلا لهو يلتهى

به أهلها ولعب يلعبون به ثم يزولون عن ذلك كله ويزول كل ذلك عنهم إلا ما ابتغى به وجه الله ﷻ من صالح الأقوال والأعمال والنيات فهذا الذي يبقى كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦] أما سائر ما في الدنيا فزائل وفان، وإن الدار الآخرة (جنتها ونارها) لهي الحياة الباقية التي لا تفنى ولا تزول فاحرصوا على جنتها وابتعدوا عن نارها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ التي يتمتع منها هؤلاء المشركون ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ يقول: إلا تعليل النفوس بما تلتذّ به، ثم هو مُنْقَضٍ عن قريب، لا بقاء له ولا دوام ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يقول: وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها.

وأورد بإسناد حسن عن قَتادة: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ حياة لا موت فيها.

قال الطبري:

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن ذلك كذلك، لقَصَّروا عن تكذيبهم بالله، وإشراكهم غيره في عبادته، ولكنهم لا يعلمون ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة

الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد.

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيء يلهى به ويلعب أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها وأنشد:

تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت ... وتحدث من بعد الأمور أمور

وتجري الليالي باجتماع وفرقة ... وتطلع فيها أنجم وتغور

فمن ظن أن الدهر باقٍ سروره ... فذاك محال لا يدوم سرور

عفا الله عمن صير الهم واحدا ... وأيقن أن الدائرات تدور

قلت: وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي ما ابتغى به ثوابه ورضاه ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها وزعم أبو عبيدة: أن الحيوان والحياة والحي بكسر الحاء واحد كما قال:

وقد ترى إذ الحياة حِيُّ

وغيره يقول: إن الحي جمع على فعول مثل عصي والحيوان يقع علي كل شيء حي وحيوان عين في الجنة وقيل: أصل حيوان حييان فأبدلت إحداهما واوًا لاجتماع المثلين ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: أن هؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله إلهًا آخر إذا سافروا وركبوا السفن العظيمة في البحار فلعبت بهم الأمواج وهاجت بهم الرياح توجهوا إلى الله ﷻ وحده لا شريك له بالدعاء سائلين راجين ولم يدعو حينئذٍ صنمًا ولا وثنًا ولا شجرًا ولا حجرًا ولا غير ذلك، إنما دعو الله ﷻ مفردين إياه بالدعاء فإذا سلمهم الله وهدأت الرياح والأمواج ونجاهم الله إلى البر إذا هم يعودون إلى شركهم بالله وينسون إنجاء الله ﷻ لهم فيكفروا بصنيعهم هذا، فتهددهم الله ﷻ وتوعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم وشركهم وكفرهم وعنادهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، فخافوا الغرق والهلاك فيه ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يقول: أخلصوا لله – عند الشدّة التي نزلت بهم– التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودية، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ولكن بالله الذي خلقهم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ يقول: فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلَّمهم، فصاروا إلى البرّ، إذا هم يجعلون مع الله شريكا في عبادتهم، ويدعون الآلهة والأوثان معه أربابًا.

وأورد بسندٍ حسن عن قَتادة، قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

فالخلق كلهم يقرّون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويقول تعالى ذكره: فلما نجى الله هؤلاء المشركين مما كانوا فيه في البحر، من الخوف والحذر من الغرق إلى البرّ، إذا هم بعد أن صاروا إلى البرّ يشركون بالله الآلهة والأنداد. ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ يقول: ليجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليهم في أنفسهم وأموالهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائمًا ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ﴾: هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. وقد قدَّمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ يعني: السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: صادقين في نياتهم وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يدعون معه غيره وما لم ينزل به سلطانا وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا فيجعلون ما فعل

الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قيل: هما لام كي أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله ويتمتعوا بالدنيا وقيل: هما لام أمر معناه التهديد والوعيد أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: أولم يرَ هؤلاء الكفار الجاحدون نعم الله المتخذون معه إلهًا آخر، أولم يروا نعمة الله ﷻ عليهم فيشكروها أولم يروا أنا جعلنا بلادهم آمنة مطمئنة والناس من حولهم يتخطفون قتلًا وسلبًا ونهبًا، فغيرهم يقتل ويُسلب وينهب وهم هنا في بلادهم آمنين مطمئنين لكوننا جعلنا بلادهم حرمًا آمنًا.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

وكقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

أما قوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ فحاصل معناه أفبوعد الشيطان الباطل، وكذب الشيطان ودعواه بأن الله له شريك، أيصدقون الشيطان بأن الله له شريك، ويعبدونه من دون الله ويجحدون نعم الله عليهم ويجحدون وحدانية الله ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ يقول تعالى ذكره، مذكرًا هؤلاء المشركين من قريش، القائلين: لولا أنزل عليه آية من ربه، نِعْمَتَه عليهم التي خصهم بها دون سائر الناس غيرهم، مع كفرهم بنعمته وإشراكهم في عبادته الآلهة والأنداد: أولم ير هؤلاء المشركون من قريش، ما خصصناهم به من نعمتنا عليهم، دون سائر عبادنا، فيشكرونا على ذلك، وينزجروا عن كفرهم بنا، وإشراكهم ما لا ينفعنا، ولا يضرّهم في عبادتنا أنا جعلنا بلدهم حرمًا، حرّمنا على الناس أن يدخلوه بغارة أو حرب، آمنًا يأمن فيه من سكنه، فأوى إليه من السباء، والخوف، والحرام الذي لا يأمنه غيرهم من الناس، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ يقول: وتُسْلَب الناس من حولهم قتلًا وسباء.

وأورد بإسناد حسن عن قَتادة: في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ قال: كان لهم في ذلك آية، أن الناس يُغزَون ويُتَخطَّفون وهم آمنون.

وقوله: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ يقول: أفبالشرك بالله يقرّون بألوهة الأوثان بأن يصدّقوا، وبنعمة الله التي خصهم بها من أن جعل بلدهم حرمًا آمنًا يكفرون، يعني بقوله: ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: يجحدون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ممتنًّا على قريش فيما أحلهم من حرمه، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمنًا، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى : ﴿لِإِيلَٰفِ

قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١-٤].

وقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه الأصنام والأنداد، و﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم.

❁ ❁ ❁

بعض صور الكذب والافتراء على الله ﷻ

س: وضح معنى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ليس هناك أحدٌ من المفترين الكاذبين أظلم من شخص افترى على الله كذبًا أو كذب بالقرآن لما جاءه به رسول الله ﷺ وكذَّب بتوحيد الله ﷻ، أليس في إخبارنا أن جهنم مقامٌ للكافرين مُدكر ومتعظ ومزدجر لمن قال هذا حتى يُقلع عنه؟!!

هذا، وللكذب على الله صور، منها: ادعاء الشريك له وكذا ادعاء الصاحبة والولد له – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- ومن ذلك قولهم إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وكذلك تحريمهم ما أحل الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ونسبة ذلك إلى الله، ومن

ذلك أيضًا ادعاء بعضهم أنه أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، إلى غير ذلك من صور الكذب والافتراء على الله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن أظلم أيها الناس ممن اختلق على الله كذبًا، فقالوا إذا فعلوا فاحشة: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، والله لا يأمر بالفحشاء ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ يقول: أو كذّب بما بعث الله به رسوله محمدا ﷺ من توحيده، والبراءة من الآلهة والأنداد لما جاءه هذا الحقّ من عند الله ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول: أليس في النار مَثْوًى ومَسْكَن لمن كفر بالله، وجحد توحيده وكذّب رسوله ﷺ، وهذا تقرير، وليس باستفهام، إنما هو كقول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاح

إنما أخبر أن للكافرين بالله مَسْكَنا في النار، ومنزلا يَثْوُونَ فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال: إن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله. وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [

الأعراف: ٢٨] ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾ قال يحيى بن سلام: بالقرآن وقال السدي: بالتوحيد وقال ابن شجرة: بمحمد ﷺ وكل قول يتناول القولين ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: مستقر وهو استفهام تقرير.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾؟

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: والذين بذلوا من أموالهم وأنفسهم وأوقاتهم جهدًا لنصرة ديننا ولإعلاء كلمتنا لنوفقنهم لإصابة الحق ولطريق الرشاد ولسبيل الجنة، وإن الله ﷻ لمع أهل الإحسان يوفقهم ويسددهم ويهديهم ويحفظهم ويرعاهم ويتولاهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله كذبًا من كفار قريش، المكذّبين بالحقّ لما جاءهم فينا، مُبتغين بقتالهم علوّ كلمتنا، ونُصرة ديننا ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ يقول: لنوفقنهم لإصابة الطرق المستقيمة، وذلك إصابة دين الله الذي هو الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول: وإن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مُصدّقا رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ فقلت له: قاتلوا فينا، قال: نعم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ يعني: الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، أي: لنُبصرنهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار فينا أي: في طلب مرضاتنا.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوالًا منها قول ابن عطية: فهي قبل الجهاد العُرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، وقولًا ثانيًا، أُراه قاصرًا، وهو أنه في العبَّاد، وقولًا ثالثًا: مؤداه أنها في الذين يعملون بما يعلمون فيورثهم الله علم ما لم يكونوا يعلمون.

وقولًا رابعًا أعم شيئًا ما، وهو قول أبي سليمان الداراني:

ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين وعُظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾.

وأورد قول ابن عباس وفيه: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا.

وقال القرطبي أيضًا: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ أي: طريق الجنة، وقال: وهو سبحانه معهم بالنصر والمعونة والحفظ والهداية ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

من سلك طريق الهداية يسرها الله عليه

س: اذكر بعض الأدلة على أن من سلك طريق الهداية يسر الله له أسبابها وسهلها عليه؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.
[الليل: ٥-٧]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مني ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً...».

والله أعلم.

❁ ❁ ❁